الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عباس لغرور- خنشلة-

كلية الآداب واللغات

قسم: اللغة والأدب العربي

الشعبة: اللغة والأدب العربي

التخصص: أدب حديث ومعاصر

ثيمة الوطن

في رواية ربي إني وضعتها أنثى – لنردين أبو نبعة

بحث مقدم لقسم اللغة والأدب العربي لاستكمال مواد شهادة الماستر

إعداد الطالبة:

- رانية مساهلي

إشراف الدكتورة:

- سميرة قروي

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
فريدة مقلاتي	أستاذ محاضر – أ–	جامعة عباس لغرور – خنشلة–	رئيسا
سميرة قروي	أستاذ محاضر – أ–	جامعة عباس لغرور – خنشلة–	مشرفا ومقررا
سهام أوصيف	أستاذ مساعد – أ–	جامعة عباس لغرور – خنشلة–	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2018 /2019

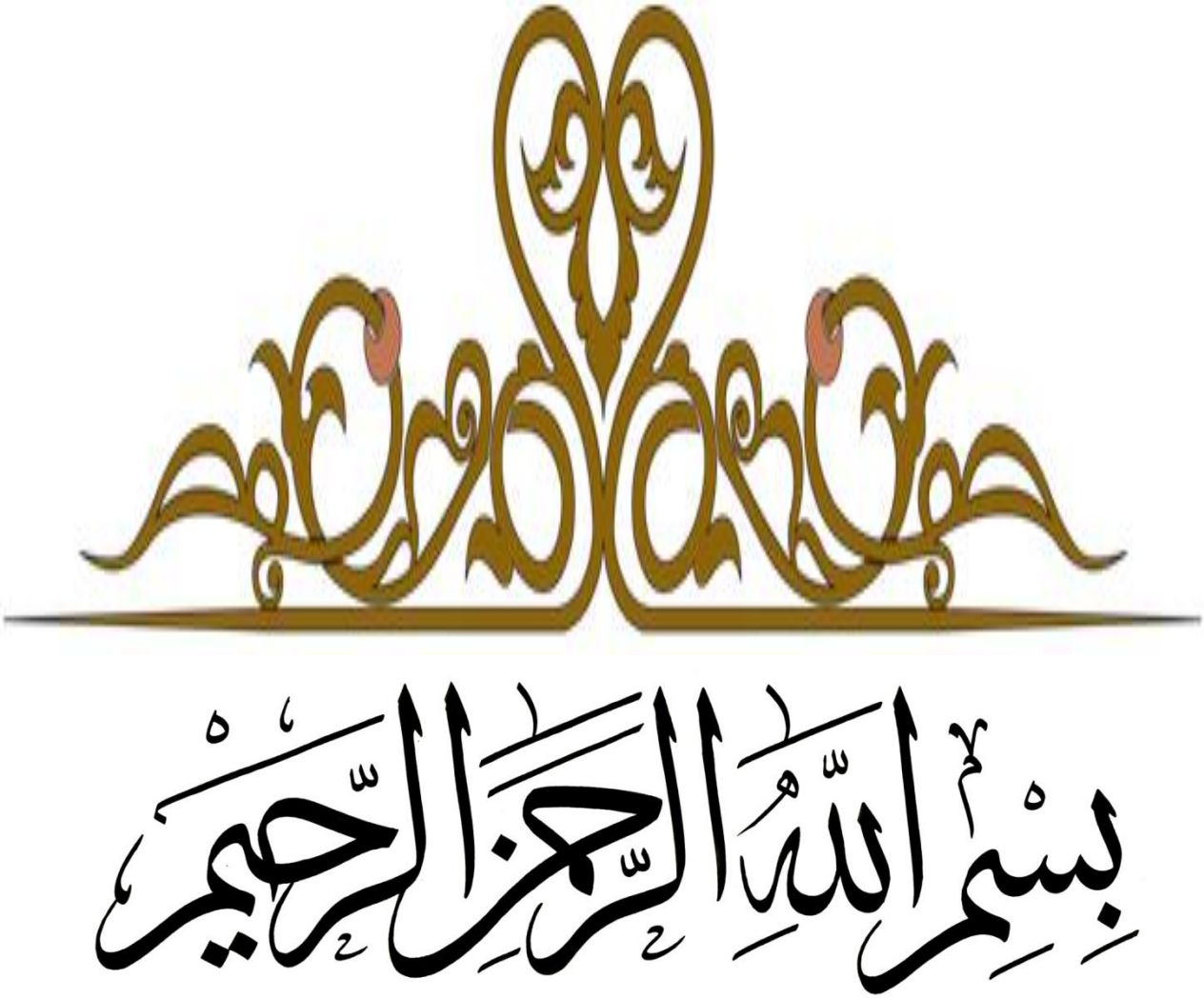
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

مقدمة

يعتبر الأدب بشقّيه الشعر والنثر ابن الذات المبدعة، فكما يجري لسان الشاعر باللغة الرزينة والكلمة الجميلة، يحضر الكلام المنثور ليفتح أبواب القوة والثراء والتأصيل، من هذا المنطلق كان للخطاب الروائي حضور قوي في الإبداع الأدبي؛ فهو الصورة الملائمة لحالة وعي المجتمع وعالمه المعيش في واقعيته، ذلك لما يحتويه من كمّ ومساحة هائلة تجعل المبدع يعبّر عن أفكاره ومشاعره وشؤونه، ويقدّم للمتلقي كمًّا معرفيا وثقافيا داخل نصّ واحد، ناهيك عن الجانب الفنّي الذي يُضفي دائما التمتّع من خلال البناء السردي للرواية، فهي عبارة عن مرآة عاكسة للإنسان مبدعًا كان أم متلقيًّا.

والرواية تعد ذلك الرّحم الذي تتفاعل فيه جلّ القضايا في مختلف أنماطها، ومن بين هذه القضايا التي عالجتها الرواية قضية الوطن عمومًا والوطن الفلسطيني خاصّة، القضية التي لم تكن قضية شعبها فقط، بل كانت قضية كل العرب في كلّ قلب وقلم، قضية طُرحت في شتّى الميادين وكان ذلك كافيا لتتخذ مادة دسمة استهلكت في العديد من الكتابات، وتجعل من نفسها الشغل الشاغل لآلاف الكتّاب والمبدعين، ومن بينهم الأديبة الفلسطينية **نردين أبو نبعة** في روايتها " ربّ إنّي وضعتها أنثى" التي حاولت من خلالها فضح الجرائم التي كانت ترتكب ضدّ الشعب الفلسطيني، وبناءً على هذا كان موضوع دراستنا هو ثيمة الوطن في رواية "ربّ إنّي وضعتها أنثى"، ومن أهم الدوافع التي تركت فينا أثرًا عميقًا القضية الفلسطينية التي شغلت ولا زالت تشغل بال العرب، ولا زال جرحها ينزف إلى يومنا هذا، فهي قضية وطن مقدّس دنّسته يد الكولونيالية.

الوطن باعتباره ثيمة ملحّة في الأدب الفلسطيني قد شكّل موضوعًا ملفتًا للانتباه في رواية "ربّ إنّي وضعتها أنثى"، وعليه تمحورت إشكالية بحثنا حول:

- كيف استثمرت الروائية **نردين أبو نبعة** ثيمة الوطن في خطابها الروائي؟

وقد تفرعت عن هذه الإشكالية جملة أسئلة تمثلت في:

- كيف تجلت الأبعاد المختلفة لصورة الوطن في الرواية؟
- فيمَ تكمن مختلف الدلالات الرمزية لصورة الوطن في الرواية؟

وللإجابة على هذه الأسئلة اعتمدنا في دراستنا على المنهج الموضوعاتي الذي يعين على الإلمام بثيمة الوطن وإبراز أهم أبعاده وتمظهراته بفعل آلياته الإجرائية التي تتناسب وموضوع الدراسة.

وقد ارتسمت خطة بحثنا في مدخل وفصلين وخاتمة، كان المدخل موسوما بـ: في **مفهوم الوطن وحضوره في الرواية العربية**، تطرقنا فيه إلى مفهوم الوطن مرورا على حضوره في الرواية العربية في روايتي "ذاكرة الجسد" **لأحلام مستغانمي**، ورواية "لخضر" **لياسمينة صالح**.

أمّا الفصل الأول فقد عنون بـ: **أبعاد صورة الوطن في رواية " ربّ إنّي وضعتها أنثى"**، وقسمناه إلى أربعة عناصر، كان الأول موسوما بـ: البعد السياسي لصورة الوطن في الرواية، تناولنا فيه مفهوم الاغتراب ومظاهره في الرواية (الاغتراب خارج أرض الوطن، الاغتراب داخل أرض الوطن)، والعنصر الثاني اختصّ بـ: البعد النفسي لصورة الوطن في الرواية، بيّنا فيه المشاكل النفسية التي يعاني منها الفلسطيني في الرواية، أمّا الثالث فعنون بـ: البعد الاجتماعي لصورة الوطن في الرواية، وكان عبارة عن جملة مستخلصة لعادات وتقاليد المجتمع الفلسطيني، والعنصر الأخير: البعد الديني لصورة الوطن في الرواية، وأثبتنا من خلاله أصالة الهويّة العربية الإسلامية للمجتمع الفلسطيني.

أما الفصل الثاني فقد بحث في: **الدلالات الرمزية لصورة الوطن في رواية "ربّ إني وضعتها أنثى" لنردين أبو نبعة**، وشمل أربعة عناصر، إلتفتت إلى رمزية صورة الوطن الأم، صورة الوطن الأب، صورة الوطن البنوّة، وصورة الوطن الطبيعة.

وحوصلت الخاتمة نتائج البحث.

أمّا المراجع المعتمدة في هذا البحث فنذكر –على سبيل المثال لا الحصر– كتاب وهيب طنّوس "الوطن في الشعر العربي (من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر ميلادي)" ونضال الصالح، نشيد الزيتون (قضية الأرض في الرواية العربية الفلسطينية)، بالإضافة إلى العديد من المراجع المدونة في قائمة المصادر والمراجع.

أمّا عن الصعوبات فالحمد لله لم تواجهنا أيّة صعوبة.

كما لا يفوتنا تقديم جزيل الشكر وبالغ الامتنان لجامعة عباس لغرور بعامة، وكلية الآداب واللغات وقسم الأدب العربي بخاصة، وإلى أساتذتنا الكرام الذين ساهموا في إتمام هذا العمل وإثرائه، ونخص بالذكر الأستاذة الفاضلة "**قروي سميرة**" على حسن صنيعها بقبولها الإشراف على هذه المذكرة، وعلى عظيم فضلها بما قدمته من توجيه ونصح وإرشاد، وعلى جميل صبرها لإخراج هذه المذكرة في الشكل المقبول مادة وفكرا ومنهجا.

ويدعونا – مرة أخرى– باعث العرفان بالجميل وشكر الصنيع أن نتقدم بالشكر الجزيل إلى أساتذتنا الكرام، الأستاذة الفاضلة "**مقلاتي فريدة**" والأستاذة الكريمة " **أوصيف سهام**" وكل أعضاء لجنة المناقشة الذين جعلوا لمذكرتنا حيزا زمانيا من وقت انشغالاتهم الكثيرة، واعدين إيّاهم أن جل الملاحظات والتوجيهات والانتقادات ستؤخذ بعين الاعتبار.

مدخل

في مفهوم الوطن وحضوره في الرواية العربية

يعدّ موضوع الوطن من المواضيع الهامة التي شغلت حيّزًا واسعًا في الدراسات الأدبية الغربية والعربية على حد سواء، ذلك أن ثيمة الوطن وحبّه ظاهرة لصيقة بالوجود الإنساني وملازمة له، فمنذ بدء الخليقة والوطن هو الأم التي ينتمي الإنسان إلى أحضانها منذ اللحظات الأولى التي يطلق فيها صرخة الحياة.

وهو بهذا يشكل هاجسا كبيرا في التكوين العاطفي للإنسان أيًّا كان، فلا نتصور مثلاً أن الإنسان يستطيع أن يعيش سويًّا من الناحية العاطفية وهو فاقد لوطنه، فهذه العاطفة تُملي عليه حب التضحية والفداء لأجله.

1- تعريف الوطن

أ- تعريف الوطن لغة:

يعرّفه **إبن منظور** في لسان العرب (الوطن: المنزل الذي تقيم فيه، وهو موطن الإنسان ومحلّه، والجمع: أوطان، وأوطان الغنم والبقر: مرابضها وأماكنها التي تأوي إليها، ومواطن مكّة مواقفها، وهو من ذلك وطّن بالمكان وأوطن: أقام. واطنه: اتخذه محلا ومسكنا يقيم فيه. والميطان: الموضع الذي يوطن لترسل منه الخيل في السباق وهو أول الغاية. وروى عمرو عن أبيه قال: المياطين، الميادين)[1].

فالمفهوم اللغوي للفظة الوطن في لسان العرب يدور حول: المنزل، السكن والإقامة، والمحل أو المكان الذي يأوي إليه الإنسان ويسكنه، ويربض ويقيم فيه الحيوان.

وجاء في القاموس المحيط (الوطن: منزل الإقامة كالموطن، جمعه: أوطان. ووطن به، وأوطن: أقام، وأوطنه إيطانا ومسكنا يقيم فيه، وواطنه على الأمر: أضمر فعله معه)[2].

---

[1] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، م1، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، ص239.

[2] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط8، (1426هـ-2005م)، باب النون، فصل الواو والنون، ص1338.

ولم يختلف مفهوم الوطن عند **الفيروز آبادي** عن تعريف **ابن منظور**، فكلاهما يتفقان على أن الوطن هو المكان الذي يتّخذه الإنسان مسكنا ويحل به مع أهله ، أو عشيرته.

وقال **الزبيدي**:(الوطن منزل الإقامة من الإنسان ومحلّه وجمعها أوطان، وفي صفته صلّى الله عليه وسلم، كان لا يوطن الأماكن: أي لا يتخذ لنفسه مجلسا يعرف به، والموطن مفعِل منه، ويسمّى مشهد من مشاهد الحرب، وجمعه: مواطن، فالموطن المشهد من مشاهد الحرب، والمواطن: المجالس)[1].

وقد روي عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم، أنّه كان لا يتعلق بمكان جغرافي لكي لا يتخذه البشر مزارًا أو محجّا يحجّون إليه، أو مكانًا يعبدونه ويقدّسونه.

وفي المعجم الوسيط (الوطن: مكان إقامة الإنسان ومقرّه، ولد به أم لم يولد)[2].

قرن المعجم الوسيط الوطن وشرطه بشرط الإقامة؛ فهو الذي يقيم فيه الإنسان سواء أكان مسقط رأسه ومكان أهله وأقربائه، أو لم يكن.

وجاء في المنجد (الوطن: مقرّ الإنسان الذي ولد به، الوطن الأم هو الوطن الأصلي موضع الولادة، نقول: عاد المهاجر إلى الوطن الأمّ)[3].

فصبحي حمّود يرى في المنجد: بأنّ الوطن هو مكان وموضع الولادة أي المقرّ الذي ولد به الإنسان، سواء أنشأ وترعرع فيه أو لا، وقال بأنّه هو الوطن الأم، الذي مهما اغترب وابتعد عنه المهاجر فلا بد أن يحن للعودة لهذا الوطن الأم.

---

[1] محمد مرتضى الحسني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، طبعة الكويت، ط1، (1422هـ، 2001م)، باب النون، فصل الواو والنون، ص262-263.

[2] إبراهيم أنيس، عبدالحليم منتصر، عطيّة الصوالحي، محمد خلف الله أحمد، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، 2004، ط4، ص1054.

[3] صبحي حمّود، المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، ط1، 2002م، مادة(و-ط-ن)، ص1539.

ويقول الدكتور **محمد محمد حسين** في كتابه " الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر": (الوطن في اللغة: محلّ الإنسان مطلقا، فهو السّكن بمعنى استوطن القوم هذه الأرض وتوطّنوها، أي اتّخذوها سكنًا)[1].

وهكذا يأخذ الوطن معنى أوسع، وهو محلّ الإنسان المطلق، أي أينما ذهب الإنسان واتّخذ أرضًا ما سكنًا، تعتبر وطنه، بمعنى استوطنها، وليس بالضرورة أن تكون محلّ ولادته، ومكان ترعرعه.

ورود لفظة "وطن" في القرآن الكريم

وردت لفظة (وطن) في القرآن الكريم مرّة واحدة فقط، وذلك قي سورة التوبة، في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ سورة التوبة، الآية: 25

والمتصرّف في هذه المادة (مواطن): وهي جمع "موطن"، ويقصد به المكان أو الموضع.

" وقد عبّر عن الوطن في الأدب العربي، وخاصّة في الشعر بألفاظ ومصطلحات عدّة تختلف حسب مساحة دلالاتها المكانية:

1- أماكن السكن: (المنزل، الدار، البيت)

2- المعنى الأوسع لمكان السكن: (المغاني والربوع)

3- بقايا أماكن السكن: (الأطلال، الدمن، الآثار والرسوم...إلخ)

4- معنى الوطن الواسع: (المدينة، الوطن، البلد، والأرض) "[2]

[1] محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط7، 1984م، ص70.

[2] وهيب طنّوس، الوطن في الشعر العربي (من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر ميلادي)، رفع عبد الرحمن النجدي، ط1، (1975-1976م)، ص185.

ب- تعريف الوطن اصطلاحا:

أمّا عن الدلالة الاصطلاحية للوطن فهي لا تختلف عن الدلالة المعجمية كثيرًا، فالوطن هو المكان الذي يقيم فيه الإنسان، إلّا أن مفاهيمه تعدّدت من شخص إلى آخر، فيقول فيه **الجرجاني:** (الوطن الأصلي هو مولد الرجل والبلد الذي هو فيه، أمّا وطن الإقامة فهو موضع ينوي أن يستقرّ فيه خمسة عشر يومًا أو أكثر دون أن يتّخذه مسكنًا)[1].

ويلاحظ من كلام **الجرجاني:** أن النيّة لها أثر في اعتبار المكان إقامة، هذا بالنسبة لوطن الإقامة، أمّا الوطن الأصلي هو مكان ولادة الإنسان.

- ويرى **التهانوي** (أن الوطن عند أهل الشرع أنواع، فالأول الوطن الأصلي وسمّي بالأهلي ووطن الفطرة والقرار أيضا، والثاني وطن الإقامة، والثالث وطن السكنى)[2].

فرّق **التهانوي** بين عدّة أوطان مختلفة، فيقال للوطن: منزل الولادة أي المكان الذي يولد به الفرد، وسمّي بالوطن الأصلي والفطرة والقرار، والثاني وطن الإقامة أي المحلّ الذي اتّخذه الإنسان محلّ إقامة، ووطن السكنى أي اتخاذ مكان ما للسكن قد يسكنه الفرد مدّة معيّنة سواء كانت مدّة قصيرة أم طويلة.

(الوطن العام: وهو المعنى المتقدم، ويراد به الوطن الأكبر الذي تسكنه أمّة من الناس، يطلق عليهم اسم الشعب، أو المواطنون، ينتمون إليه انتماءًا كاملا، ويرتبطون به برابط الجنسيّة، فيراد به تلك اللّبنة المتماسكة بين أفراده، بحيث تحدّه عقيدة واحدة، ولا يحدّه بحدود جغرافية.

---

[1] علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، دط، ص212.

[2] محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1418هـ-1998م)، باب الواو، ص377-378.

أمّا الوطن الخاص: فيراد به الوطن الذي كثيرا ما يستعمل في لسان الفقهاء، ويراد به الموطن الخاص، أو الإقليم الخاص الذي يقيم به الشخص داخل الوطن الأكبر، كالقاهرة داخل مصر، والقصيم داخل المملكة...ونحوه)[1]

أي بإمكاننا أن نقول الوطن العام هو الوطن الكلّي الذي يتضمّن أوطانًا جزئية، حيث تسكنه مجموعة أو أمّة من الناس، وليس فردًا أو عائلة، يكونون في ذلك على ديانة واحدة تربطهم، ويسمّى الوطن الأصلي، الأهلي، وطن الفطرة.

أمّا الوطن الخاص: هو جزء من الوطن العام، أو يمكن أن نمثّله بالبيت أو المنزل الذي يضم عائلة أو مجموعة من الأفراد للتعايش لا غير.

ويختلف مفهوم الوطن في العصور القديمة عن مفهومه في العصور الحديثة، " فقد كان مفهوم الوطن في القديم ضيّقًا يشمل الحيّ، ومحلّ الإقامة، ثمّ صار يتّسع كلّما تقدّم الزمن ومنذ القديم ارتبط الشوق والحنين بالوطن، فصار الحنين إلى الأوطان شائعا في كل العصور، سواء الوطن القبيلة والحي أم الشعب والأمّة الكبيرة، وسواء أكان الوطن مسقط الرأس أم لم يكن، كما قال الشاعر:

أوطنتُ وطنًا لم يكن من وطني لو لم تكُن عاملُها في أسْكُنِ

ويقول عنترة:

أحْرقتْني نارُ الجوى والبِعاد بعدَ فقْدِ الأوطانِ والأولادِ

فالحنين إلى الأوطان انتماء، وولاء وحب، وحنين، ولا يقتصر الحب والحنين على الإنسان فقط، بل يشمل الحيوان أيضًا "[2]

[1] محمد بن موسى بن مصطفى الدالي، الوطن والاستيطان، م1، مكتبة الرشد ناشرون، ط1، (1435هـ-2013م)، ص32-33.

[2] يحي الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان)، مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط1،(1428هـ-2008م)، ص10.

يمكننا القول أن الوطن في الاصطلاح يدلّ على مكان إقامة الإنسان ومقرّه الذي استقرّ فيه، سواء ولد به أم لم يولد، والذي تأهل به، ونوى التعيّش والإقامة الدائمة به، مع عدم قصد الارتحال عنه، ثمّ اكتسب مفهومًا أكثر تطورًا، فأصبح يعني البقعة الجغرافية المعيّنة، بحدودها، وتاريخها، وعقيدتها، وبشرها التي يرتبط بها الإنسان ارتباط انتماء وولاء وتجنس.

2- حضور الوطن في الرواية العربية الحديثة

تعدّ الرواية من الأجناس النثرية التي لعبت دورًا هامًا في كشف القضايا الإنسانية، ومسح الغبار عن المعطيات والمنعرجات المسكوت عنها، فهي الرحم الذي تتفاعل فيه جلّ القضايا في مختلف أنماطها، خاصّة أنّنا في عصر فتح المجال لكثير من القضايا الإنسانية لمناقشتها وتحليلها مهما بلغت خصوصيتها، قصد تغييرها حسب ما يناسب الفكر والوعي من جهة، والتعامل مع الواقع والمجتمع والتجربة من جهة أخرى، ومن هنا يمكن اعتبار أن الرواية تقدّم رؤية للراهن وللعالم حسب المنهج الغولدماني أكثر من كونها مجرّد عمل إبداعي يتمّ استهلاكه لغرض التسليّة والإمتاع لا غير، يقول في هذا **عبد الرحيم الكردي** "إنّ النص الروائي ليس مجرّد رسالة من منشئ إلى مثقف... بل هو في إطار يجمع مستويات خطابية مختلفة ومتداخلة لأن كاتب الرواية لا يشيّد رسالة فقط، بل يعمل على نقل مجموعة من الرسائل"[1].

فالرواية تعبير عن واقع معين في فضاء سردي يشعّ بالتميّز، يجمع ما بين الألفة والغرابة، فضلا عن أنّها دائما ما تميل إلى اقتحام المواضيع التي تتعلّق بالأنا والهوية، والارتباط بالأرض في إطار غربة الوطن، وعزلة الزمن، ليظهر الشعور بالوحدة والاغتراب وفقدان الانتماء، وضياع الهوية في حدث تغلب عليه رحلة الذات الضائعة المأزومة المتشرّدة، والفاقدة لكينونتها نتيجة اغترابها عن موطنها والنفي عنه.

[1] عبد الرحيم الكردي، السرد في الرواية المعاصرة، "الرجل الذي فقد ضلّه أنموذجا"، تقديم طه وادي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2006م، ص108.

والرواية المنتسبة إلى جغرافية الأوطان لا بدّ لها أن تحمل موروثاته، وتفوح منها رائحة ترابه وتحيط بها قضاياه وتطلعاته وتضاريسه، فهي التي تحرّك أحداثها لغرض إثبات الكينونة والأصالة والتجذّر.

ومن هذا المنطلق كان الوطن بتجليّاته المختلفة من أهمّ المواضيع التي طرقتها الرواية وحاولت الكتابة احتضانها، فهو ليس مجرّد كلمة على الشفاه، أو تسلل خطيّ لعدد من الحروف... إنّه الأصالة، وإثبات لكينونة الذات وفرض وجودها وجذورها، فثيمة الوطن من أهم الثيمات البارزة في الآثار الأدبية خاصة حينما تجلي أحقيّة الإنسان في الارتباط بأرضه ووطنه وتسجّل صراعه من أجل إثبات حقّه المشروع في اكتسابه والاحتفاظ به والذود عنه كلما أجبرته الأقدام السوداء على الاغتراب عنه، وتركه يتيما تدوسه أقدام طاغية محدثة فيه فسادًا.

وهاجس الوطن يسكن كل إنسان فاقد له أو مغترب عنه، أو يعيش فيه ولكن غرّبت عنه حرية الاستمتاع بها فيه، ومن هذا الأفق أصبح الوطن يجسّد إرادة الوجود في أدقّ صورها وتفاصيلها النابعة من قناعة رفض التخليّ عنه أو المساومة عليه، فالوطن هو البقاء هو الكينونة والوجود والهوية والانتماء، لذلك توّج بمتعلقاته ثيمات الأعمال الأدبية، ولعل بالأخص منها ثيمة الأرض، فإذا عدنا إلى:

"**الرواية المصرية:** نجد أن رواية "**محمد حسين هيكل**، زينب1914" تناولت موضوع الوطن والريف العربي، كذلك رواية "عبد الرحمن الشرقاوي، الأرض 1970" التي تُعنى بصراع الفلاح ضدّ مستغلّيه، وتمجّد ارتباطه بأرضه ووطنه.

الرواية السورية: في الرواية السورية نستشهد برواية " **زرزور**، المذنبون 1974" التي تحدّثت عن الوطن والبعد عن أرضه، حيث صوّرت قسوة الطبيعة من جهة، والإقطاع الذي كان يلتهم أراضي الفلاحين بالربا من جهة أخرى.

الرواية المغربية: ونقف عند رواية "**أحمد زياد**، بامو 1974" التي ترصد نضال الفلاحين في ذلك الجزء من الجغرافية العربية ضدّ الاستعمار الفرنسي الذي كان يلتهم الأرض ويستنزف الوطن.

الرواية الجزائرية: لم تشكّل قضية الأرض في النتاج الروائي الجزائري تيارًا واضحًا إلا بعد الحرب العالمية الثانية، ويمكن تقسيم ذلك النتاج وفي هذا المجال إلى قسمين: الأول، يعالج القضية كما تتجلى في المرحلة التي سبقت الاستقلال الوطني، والثاني، يتناولها في ظلّ الثورة الزراعية التي تلته، ويمكن التمثيل للاتجاه الأول برواية "**محمد صادق حجاجي**، على الدرب 1977" التي تتصدى للحديث عن الإقطاع الجزائري في الفترة التي سبقت الاستقلال الوطني.

وممّا يمثّل الاتجاه الثاني من الأعمال الروائية الجزائرية، رواية "**عبد الحميد بن هدوقة**، ريح الجنوب 1971"، المعنية بقضية الأرض ومجّدت ارتباط الفلاح الجزائري بأرضه"[1]

أمّا في الرواية العربية الحديثة المعاصرة، فيمكننا أن نستشهد بروايتين (رواية "ذاكرة الجسد" **لأحلام مستغانمي**، ورواية "لخضر" **لياسمينة صالح**) فكلاهما تناول قضية الوطن، وفكرة المنفى والاغتراب، والابتعاد عن الأرض.

وتعدّ رواية "ذاكرة الجسد" للروائية **أحلام مستغانمي** من الأعمال الروائية التي عالجت قضية الوطن، من خلال فكرة الاغتراب التي عانى منها البطل "خالد بن طوبال" من خلال

[1] بتصرّف، د.نضال الصالح، نشيد الزيتون (قضية الأرض في الرواية العربية الفلسطينية)، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 2004، ص33-37.

الوقائع المؤلمة التي وقعت طيلة حياته، ومشاركته في حروب جبهة التحرير التي أدت إلى إصابة ذراعه اليمنى بالبتر، ثم ينتقل إلى مستشفى بحدود تونس، حيث يعاني الكآبة واليأس عند حبسه في المشفى بسبب ابتعاده عن الوطن والجبهة، كما أن الوطن بالمقابل كان يعاني فقدان روحه النابض "فهؤلاء الذئاب لا يكتفون بتحويل الوطن إلى جثّة، بل هم يسلبون القيم والأخوة، وبعدها يتجشأون ويمسحون أفواههم بأيديهم القذرة، هؤلاء هم القاعدة الاجتماعية للصّراع" [1].

وفي هذا إلماح إلى فكرة إفراغ الوطن من محتواه، من البعد القيمي الذي يكتسبه بمواطنيه ويكسبهم إياه.

ومن البعد المادي الذي يؤدي إلى تدميره "فعندما يفتقر الوطن يفقد أهمّ سلطة لديه وهي المال، وبفقدانها يفقد السيطرة على الوضع السياسي والاجتماعي فتنتشر الفوضى، ويتمرّد المظلومون، وتصبح القوة مالية كانت أو قوة سلاح هي المتحكمة، تحدد ما هو الوطن"[2].

وهذا ما تؤكده أيضا أحلام مستغانمي في روايتها "ذاكرة الجسد" بأسلوب مباشر في قولها:

"كانوا هنا جميعم .. كالعادة

أصحاب البطون المنتفخة .. والسجائر الكوبية.. والبدلات التي تلبس على أكثر وجه

أصحاب كل عهد وكل زمن.. أصحاب الحقائب الدبلوماسية، أصحاب الهامات المشبوهة، أصحاب السعادة وأصحاب التعاسة، وأصحاب الماضي المجهول

هاهم هنا...

[1] عبد الرزاق عيد، في سوسيولوجيا النص الروائي، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2000، ص156.

[2] الشريف حبيلة، الرواية والعنف " دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة "، عالم الكتب الحديث، 2010، ط1، ص73.

وزراء سابقون.. ومشاريع وزراء.. سراق سابقون.. ومشاريع سراق، مديرون وصوليون... وصوليون يبحثون عن إدارة.. مخبرون سابقون وعسكريون متنكرون في ثياب وزارية

هاهم هنا...

أصحاب النظريات الثورية، والكسب السريع، أصحاب العقول الفارغة والفيلات الشاهقة، والمجالس التي يتحدث فيها الفرد بصيغة الجمع

هاهم هنا.. مجتمعون دائما كأسماك القرش، ملتفون دائما حول الولائم المشبوهة" [1]

فالكاتبة تصّرح دون أن تلمّح، تفضح السلطة الحاكمة التي دمّرت الوطن، فأغلب المسؤوليين الحاكمين يمثلون السبب الأول في الكوارث والأزمات التي دمرت الوطن قديما حين ساندت المعمر وتدمره الآن بعد أن خلّفها المستعمر لترعى مصالحه في الوطن.

سلّط هذا النص الروائي الضوء على الواقع، معتمدًا على ما مرّت به الجزائر من الأحداث في مرحلة الثورة والمراحل الحرجة وتصفية الحسابات في مرحلة ما بعد الاستقلال، إذ أن الأصوات الروائية قد صّنفت في هذا الإطار الموضوعي على شكل نسقين إيديولوجيين هما: (الانتهازي- والطامح للتغيير).

وفي الرواية أيضا تحل ثيمة حب الوطن والحنين إلى تفاصيله الغافية في اللاشعور "فيساوي بطل القصّة، وهو مجاهد كما قلنا سابقا الذي أصبح فنانًا يسخّر موهبته الإبداعية ليرسم جسور مدينته قسنطينة، بين حبيبته وقسنطينة من خلال توظيف الخطاب الشهواني، وهو يستعين بقوة حافظته ليجمع بين الحبيب المقدّس، وبين هواه الشهواني، مظهرًا الجزائر

[1] أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب، بيروت، 1993، ص 424-425.

الوطن، بصورة "الأم"، لكن الإحباط يضع حدّا لهذه النظرة الأنطولوجية، إذ يظهر الواقع المرّ الجزائر وطنًا يتيم الأمّ، هو أشبه بالأب في حقيقة الأمر" [1].

ومن الروايات التي رسمت صورة فنية عن الوطن وما يحمله من آمال والآم رواية "لخضر" **لياسمينة صالح**، وهي الرواية السادسة للكاتبة **ياسمينة صالح**، حيث صدرت سنة 2010 عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، على نفس الخط الإبداعي بعد رواياتها: (بحر الصمت 2001، أحزان امرأة من برج الميزان 2002، قليل من الشمس تكفي 2003، حين نلتقي غرباء 2004، وطن من زجاج 2006)، وقد تميّزت بجدّتها وفنيّتها في معالجة قضايا الوطن والإنسان بطريقة إبداعية مغايرة ومبهرة، إنها رواية تحكي مأساة كثيرين من البشر خصوصا في عصرنا الراهن الذي أصبح فيه الإنسان يستغلّ أخاه الإنسان، والحكومات تستغل شعبها وأبناءها تحت شعارات كاذبة مزيّفة، فيمكننا القول بأن رواية "لخضر" هي عبارة عن ثورة ضدّ الواقع المزيّف الذي نعيشه "وحسب بعض النقاد هي تتوزع على محورين رئيسيين، متوازيين مترابطين بإحكام عضوي لا ينفصم هما، الحرب والدم من جهة، والحب والتزاوج من جهة ثانية" [2]

وقد طغى فيها الصوت الذكوري فعنوان الرواية "لخضر" الشخصية السياسية التي قالت عنه الكاتبة في إحدى حواراتها الصحفية " لخضر لم يكن اسمًا وكفى، إنه في النهاية كل الرواية بأبعادها التاريخية والجغرافية والسياسية " [3]

فالرواية وإن بدت سيرة ذاتية للخضر، لكنها تحمل العديد من الأبعاد التي تتناول واقع بلد الجزائر، فلخضر هنا رُبط بثيمتين: الأولى "ثيمة الذات" وهي ذاته التي عانت الفقر والحرمان وفقدان الأمّ وحنانها إلى جانب الأخت الصغرى بسبب المرض، والذي يراه أمرا

[1] محمد الماغوط، (الوطن \ الأرض) في الأدب العربي الحديث، نون والقلم، العدد14، 2016.

[2] عدنان الظاهر، لخضر: قمة الإبهار في النص السردي عند ياسمينة صالح، مجلّة عمّان، العدد173، 2010، ص46.

[3] هامل شيخ، أصوات الوطن في رواية "لخضر" للكاتبة ياسمينة صالح، أعمال المؤتمر الدولي، الرواية العربية في الألفية الثالثة ومشكل القراءة في الوطن العربي، مركز جيل البحث العلمي، الجزائر، 2016، ص109.

غير عادل، خاصة وأنه عاش مع أب عديم الحنان لم يعوضّه شيئا، كل هذه الأمور أثّرت في ذاتية لخضر، وجعلت منه شخصية بائسة لا تسعى ولا تطمح لشيء.

أمّا الثيمة الثانية، التي رُبط بها لخضر هي "ثيمة الوطن" أو السلطة الحاكمة في الوطن "فتتجلى لنا السلطة وعلاقتها بالوطن في رواية لخضر ضمن عاملين اثنين:

الأول، وهو عامل " الطموح " الذي حرّك الشخصية مدفوعا بظروف قاسية ممّا جعلها ترى في السلطة خلاصا من الفشل والنكسات المتتالية، فلخضر لأول مرّة يشعر أن ما ينقصه أهم من المال ومن الحب والمعيشة... تنقصه السلطة التي تجعل كل هذه الأمور في متناوله" [1]

فكل آمال لخضر مرتبطة السلطة، فهي في نظره سلطة أمنية بعيدة عن كل الاتهامات التي قد توجّه إليها، حيث بإمكانها أن تنقذه وتخلّصه من الوضع المزري الذي يعيشه.

"العامل الثاني، هو السلطة مجسدة في أقطاب معينة تحاول السيطرة على الوطن، حيث جسدتها الكاتبة في صراع إيديولوجي بين الإسلاميين والاشتراكين في فترة ما قبل التسعينات، ومراقبة أمنية حاولت القضاء على انفلات الأمور، لكن بعض المخططات الأمنية التي انخرط فيها لخضر تم اختيارها كمهنة ساهمت في وضع الوطن في مفترق طرق خطير" [2]

أي أن كل بلد يعاني من هذا العنف السياسي من قبل السلطة، والشعب يعتبر ضحيّة كل هذه السياسات والإيديولوجيات المقيتة.

فرواية **ياسمينة صالح** تفتقر للصوت الأنثوي، ويغلب عليها الصوت الذكوري من خلال عنوانها، وبطلها "لخضر" الذي عالج قضية الذات البائسة والمتسلطة على الوضع الحرج الذي تعيشه، وقضية الوطن التي تحكمه السلطة الخادعة راح بسببها الشعب ضحية.

[1] المرجع السابق، ص118.

[2] نفسه، ص 118.

وأخيرًا، وفي مجمل القول نلاحظ أن كل من رواية "ذاكرة الجسد" **لمستغاني**، ورواية "لخضر" **لياسمينة صالح**، عالجتا تيمة الوطن معتمدتين على الصوت الذكوري بكثرة وبصور مختلفة، وعلى قضية السلطة التي راهنت على الوطن.

الفصل الأول

أبعاد صورة الوطن في رواية " ربّ إنّي وضعتها أنثى"

ثيمة الوطن في الأدب الفلسطيني:

حضر الوطن في الأدب الفلسطيني الحديث كثيمة ملحة في شعره ونثره، فمذ زمن النكبة والأقلام تحبر والحناجر تصدح بإلزامية صون الأرض وحماية الوطن يقول محمود درويش: "ما هو الوطن.. ليس سؤالا تجيب عليه وتمضي.. إنه حياتك وقضيتك معا. ما هو الوطن.. هو الشوق إلى الموت من أجل أن تعيد الحق والأرض.. ليس الوطن أرضا.. ولكنه الأرض والحق معا.. الحق معك، والأرض معهم.."[1]، وبلغة أخرى وإلحاح آخر قال كل من توفيق زياد، سميح القاسم، فدوى طوقان، إبراهيم طوقان، عز الدين المناصرة، محمد حسيب مقولاتهم الشعرية والشاعرية في الوطن، وكان للسرد طقوسه الخاصة في احتواء نكبة ونكسة الوطن التي وثقتها رواية "**الخروج من وادي السلامة**" للروائي **زيد أبو العلا**، و"**عائد إلى حيفا**" **لغسان كنفاني**، و"**المتشائل**" و"**أخطية**" **لأميل حبيبي**، و"**الصورة الأخيرة في الألبوم**" **لسميح القاسم** و"**لم نعد جواري لكم**" و"**مذكرات امرأة غير واقعية**" و"**الصبر**" و"**باب الساحة**" و"**الميراث**" **لسحر خليفة**، و"**نجوم أريحا**" و"**شرفة على الفاكهاني**" و"**عين مرآة**" **لليانة بدر** و"**تشرق غربا**" و"**يوم عادي**" و"**امرأة للفصول الخمسة**" و"**ليلتان وظل امرأة**" **لليلى الأطرش**... لقد دحض السرد سياسة تهويد الوطن وتغييب الهوية الوطنية والحضارية للشعب الفلسطيني، ورسم خارطة للمكان وركز على تثبيتها خوفا أن يُنْهَبَ بعضُ شبرٍ منها، فكان للشجر والتل والنبع والسهل والجبل والتربة والغصن والمدينة والقرية.. وكل ما يؤثث به السرد وظيفة تثبيت وحفظ ملامح المكان والأرض والوطن حتى تبقى حية في الذاكرة "فبدون الذاكرة لا توجد علاقة حقيقية مع المكان" كما يقول محمود درويش[2]

[1] – أقوال محمود درويش عن الوطن، 15 نوفمبر2015، آخر تحديث سا14.10 https://mawdoo3.com

[2] – نفسه.

رواية " ربّ إني وضعتها أنثى " للكاتبة **نردين أبو نبعة**[1]*، الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الخامسة، سنة 2013، هي رواية من منظور ثلاثة أطراف، أو رواية جاءت على لسان ثلاثة أبطال يتناوبون السرد وهم:

مريم: البنت الطموحة والقويّة، التي كانت تعمل على تحقيق حلمها الكبير وهو أن تزور بلدها الغالي فلسطين، وبالفعل أتيحت لها الفرصة وحقّقت مبتغاها فزارت وطنها التي تكنّ له ذلك الحب العميق حتى دون أن تراه.

عباس: وهو والد مريم، حيث تصور لنا الكاتبة معاناته في الغربة، ومحاولته تحقيق ذاته وهو بعيد عن وطنه رغم كل المعيقات والصعوبات التي واجهته، والمعاملة القاسية التي عانى منها بعيدًا عن وطنه.

أحمد " **أبو رجا** ": وهو عمّ الابنة مريم، وكانت حكاياته تدور حول اعتقاله والقبض عليه في الأسر، وعن كل طرق تعذيبه، ممّا زاده شوقا لأهله وحياته الهادئة فيتمنى الرجوع إلى وطنه مرة ثانية.

---

* "نردين عباس مطر أبو نبعة
إعلامية وروائية.
عضو رابطة الكتاب الأردنيين.
عضو ملتقى القدس الثقافي.
عضو هيئة إدارية لجمعية راجع للعمل الوطني.
الناطق الإعلامي لرابطة المرأة الفلسطينية في الخارج.
محكمة في العديد من المسابقات الأدبية منها:
" مسابقة تحدي القراءة العربي".
– معدّة ومُقدّمة برامج إذاعيّة منها: " برنامج حكايا وعبر" على الإذاعة الأردنية.
– صدر لها ما يزيد عن ثلاثين قصة للأطفال منها:
" قصة بنطالي مبلل" التي طبع منها 20 ألف نسخة لمشروع مكتبة الأسرة الوطنية.
تدّرس مجموعاتها القصصية بوح كمنهاج مساند للغة العربية في بعض مدارس المملكة.
صدر لها رواية " ربي إني وضعتها أنثى "، ورواية " شغفها حب " التي طبع منها سبع طبعات خلال سنة واحدة.
وأخيرا صدرت لها رواية "باب العمود" قبل أشهر.
فازت بالجائزة التقديرية في مسابقة "العودة من رام الله". (تلقتها الطالبة من قبل الروائية نفسها)

رواية "ربّ إني وضعتها أنثى " تجيب عن الكثير من الأسئلة، والاتهامات التي روّج لها الصهاينة مثل: تهمة بيع الفلسطيني لأرضه، وهي التهمة التي اتُّهم بها البطل الأول " عباس" في غربته، والرواية توثيق للمجازر والتهجير القسري، وعذابات الفلسطيني في الأسر والشتات وهي شهادة على آلامه ومعاناته في منفاه، وسجون الاحتلال، كما أن هذه الرواية تعتبر توثيق للعودة، حيث تمزج عودة الكاتبة إلى غزة بجدائل من واقع سمعته من أبيها "عباس" وعمّها "أبو رجا".

فهذه الرواية تُشعل فتيل الذاكرة في رأس الجيل الجديد وتوقظ فيهم الإحساس بحب الوطن، فتُعطيهم رؤية ونظرة صادقة عن المجتمع الفلسطيني بعيدًا عن كلّ التّهم التي وُجّهت إليه.

رواية "ربّ إني وضعتها أنثى" رواية مزجت فيها الحقيقية بالخيال، تأخذنا إلى شاطئ غزة المحاصرة، المستعمرة لنعيش مالم نتوّقع، فتعيد لنا فلسطين الغنيّة بثمارها، ببحارها وبرمالها الذهبية.

بطلة هذه الرواية "**مريم**" تلك الابنة التي وُلدت في المنفى، وعاشت بعيدة عن وطنها في تربة خصبة مالحة تسعى للبحث عن ذاكرة تربطها بوطنها وتقرّبها منه، فبالرغم من بعدها عن وطنها إلا أنها كانت تكتب عنه وتشعر بالسعادة الخفية التي تتسلل في كل آن " ... لكن في لحظات كثيرة كانت تتجمّد أصابعي لأن لك ذاكرة وامتداد في الوطن، أمّا أنا فكأنني شجرة اجتثّت من فوق الأرض مالها من قرار.."[1]

لذلك كانت تطارد تفاصيل الوطن، فما كانت لتترك أباها، بل أصرت على ملاحقته في كل لحظة وأخرى لتستخرج منه الحكايات، حكايات عن الوطن تقول: ".. كنت أركض وراء حروف أبي، أتعلق بذيل كل كلمة كما يتعلق الصغير بذيل أمّه وكأنني كنت أُطاردُ وطنا في

[1] نردين أبو نبعة، ربّ إني وضعتها أنثى، ص10.

ثنايا الحروف .. أركض بين الحروف والكلمات لعلي أبصرُ مالم أُبصر، وأسمعُ مالم أسمعْ..."[1].

تعود **مريم** إلى أرض الوطن، فجأة يُتاح لها زيارة بلدها غزّة المحاصرة، رفقة مجموعة من صديقاتها السعوديّات، حيث أنها لم تكن تتخيّل هذه الزيارة، تقول: "... لم أكن أتخيّل أن يقع الوطن بين يديّ هكذا فجأة ..."[2]

فكتبت **مريم** من هناك ما علق بذاكرتها من حكايات أبيها المغترب، كموسم قطاف الزيتون، حيث صوّر لها أجمل مشهد لقطاف الزيتون، وشبهه بليلة العُرس للعروس، لذلك تصرّ وتتفنن في عرض مشهد القطاف في فلسطين، وتربطه بمشهد يشبهه في ليبيا، فالليبيّ كان يشتري الزيت والزيتون الإيطالي والتونسي، ويترك شجرته تختفي وتنتحر، إلى أن جاء الفلسطيني واعتذر من الشجرة، وأيقظ فكر المدرّسين هناك فبدؤوا بقطفها، وأيضا حكايات الأعراس "عرس عمّها أبو رجا" الأسير المعتقل، ثم يتفجّر المتراكم لسنوات عديدة في لحظة، وتبدأ في توثيق زيارتها لغزة أول مرة فتوثق الحقائق، وتبتعث المنسي والمسكوت عنه، وتحكي قصة دخولها إلى غزة عبر معبر رفح، ودخولها الأنفاق، وزيارتها لأُسر الأسرى والشهداء، وحكايات الحب والحياة، مثل حكاية "مؤمنة وبلال" تلك الفتاة الفلسطينية التي أحبّت أسيرا من دون أن تراه فيجعلها هذا الحب المختلف أصفى ويزيدها نقاء.

رواية "ربّ إني وضعتها أنثى" هي رواية الوطن بامتياز رواية فلسطين، تحكي عن غزة، عن شوارعها، أعراسها، ثمارها، أشجارها، زيتونها، شهدائها، عن المنفى والسجن وعذاباتهما..

هي رواية المروءة، لكن مروءة المرأة، المرأة الغزية، التي صنعت الاختلاف، "فغزة" حلمت أشهرا وسنينا طويلة، وكانت تدعو الله أن ترزق بذكر لأن الذكر ليس كالأنثى، ولكن

[1] المصدر السابق، ص12.

[2] نفسه، ص12.

بعد طول حملها وشدّته وضعتها أنثى، إنها الأنثى المختلفة القادرة على التجديد والتغيير والنصر، وليس الرجل وحده القادر على ذلك.

تسعى الكاتبة من خلال روايتها إلى تغيير النظرة إلى المرأة، المرأة التي تلعب دورًا هاما في مجابهة الاستعمار، فهي تكاد لا تفرق عن الرجل في دفاعها عن وطنها، وإن اختلفت وسائلهما وطرقهما.

ومن أعماق هذه الذاكرة المغيّبة تحركت الكاتبة الفلسطينية " **نردين أبو نبعة** " في روايتها "**ربي إني وضعتها أنثى**" محاولة الإمساك بذاكرة كانت للمبعدين عن الأرض ولم تصر ملكا لأبنائهم لتجلي وعيها الخاص ومقولاتها المفارقة في تيمة الوطن.

I- أبعاد صورة الوطن في الرواية:

يحمل الوطن عند **نردين أبو نبعة** صورا عديدة وأبعادا مختلفة تأخذ من القديم والحديث معا، لحميمية وتجذّر علاقة الإنسان عموما بوطنه والفلسطيني خصوصا، ومن هذه الأبعاد التي يحملها الوطن في الرواية:

1- البعد السياسي لصورة الوطن في الرواية:

عانى الشعب الفلسطيني أوضاعا سياسية مزرية من القهر والظلم واغتصاب الصهاينة لأرضه ومحاولة طمس هويّته، وحيل بينه وبين حريّته التي هي في بعدها الحقيقي "ليست شيئا جميلاً تدعو إليه النظريات والكتب فقط، وإنّما هي واقع يعاش ويحسّ ويؤثر في غيره كما يتأثر هو أيضا بالكثير من العوامل التي تساعده على إبراز وجوده"[1]. لذلك أولاها الشعراء والأدباء كل اهتمامهم، فالكاتبة **نردين أبو نبعة** في روايتها " ربّ إنّي وضعتها أنثى"، تجعل الإنسان الفاقد لحريّته فاقد ومفارق لروحه بأكملها ولقيمته ومكانته في المجتمع، لذلك ألحت على تصوير هذه القضيّة من خلال شخصياتها التي تمثّل الشعب الفلسطيني

[1] مفيد محمد قميحة، الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، منشورات دار الآفاق الجديدة، 1981، دط، ص193.

ككلّ، ذلك الشعب الذي سُلبت منه حريّته ونُهبت ممتلكاته وحقوقه فأصبح مهمّشًا غريبًا عن وطنه وفي وطنه.

ولنا أن نجلي بدءاً معنى الاغتراب في اللغة والاصطلاح لنعي كنهه وكيفية تجليه:

أ- مفهوم الاغتراب لغة:

وردت لفظة "اغتراب" في العديد من المعاجم اللغوية وإن عدّد المنظرون تعريفها إلّا أنّها كانت تصبّ في معنى واحد وهو أنّ الاغتراب يقصد به البعد عن الوطن والانفصال عن الأرض.

فقد جاء في لسان العرب لابن منظور: "الاغتراب: النزوح عن الوطن... الغربة والغرب: غربت الشمس تغرُب غروبًا ومغربا: غابت في المغرب، والغرب الذهاب والتنحي عن الناس وقد غرب عنّا يغرب غربا، وغرب وأُغرب وأغربه: أي نحاه، والغربة والغرب النزوح عن الوطن، والاغتراب، واغترب الرجل نكح في الغرائب وتزوّج في غير أقاربه، وأغرب الرجل جاء بشيء غريب وأغرب عليه، وأغرب به صنع به صنعا قبيحا "[1]

الدلالة نفسها يكررها ابن فارس في تعريفه للاغتراب "الغربة: البعد عن الوطن، ويقال غربتِ الدّار، ومن هذا الباب غروب الشمس كأنه يعيدها بُعْدُها عن وجه الأرض، وشأوٌ مغرّب أي بعيد، ويقولون هل من مغرّبة خبر يريدون خبرًا أتى من بُعدٍ "[2]

فمعنى الاغتراب من خلال التعريفين يحوم حول الانفصال والبعد عن الوطن، والانفصال كذلك عن الآخرين جسديًا وروحيًا، ومثلما يغترب الإنسان عن كلّ ما حوله قد يغترب حتى عن كيانه وذاته.

[1] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، م1، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، ص239.

[2] ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ص421.

أمّا في المعجم المحيط فكان مفهوم الاغتراب بأنه: " الغربة بالضمّ: النزوح عن الوطن وأيضا الاغتراب والتغرّب، ونجد أيضا غرّب: غاب، كغرّب وبعُد واغترب تزوّج في غير أقاربه "[1]

وفي المعجم الوسيط: " غرّب في الأرض أمعن فيها فسافر سفرًا بعيدًا، واغترب فلان نزح عن الوطن وفلان تزوّج في غير الأقارب، والغريب الرجل ليس من القوم ولا من البلد، والغربة: النوى والبعد "[2]

من خلال مفهوم الاغتراب في المعجمين السابقين نلاحظ أنه: يحمل نفس المعنى الذي تطرّق له ابن منظور وابن فارس، فالاغتراب يعني البعد والنأي عن الوطن، والزواج في غير الأقارب والانفصال عن الذات وعن الآخرين سواء عن طريق الرضا والاختيار أو عن طريق الإجبار والإرغام.

"وقيل الغربة كربة، والقلة ذلّة، وقال:

لا ترغبوا إخوتي في غربة أبدًا

إنّ الغريب ذليل حيثما كان"[3]

فالغريب ذليل مسلوب القدرة على الاستمتاع بحياته "وشبّهت الحكماء الغريب باليتيم اللطيم الذي ثكل أبويه، فلا أمّ ترأمه، ولا أب يحدب عليه."[4]

[1] مجد الدين الفيروز آبادي، المعجم المحيط، مادة (غ–ر–ب)، دار إحياء التراث العربي، ج1، بيروت، 1997، ط1، ص 206–207.

[2] إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيّات، حامد عبد القادر، المعجم الوسيط، دار الدعوة، اسطنبول، 1989، ص647–648.

[3] أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، دار رائد العربي، 2010، ط2، 1982، ص13.

[4] نفسه، ص14.

ب- مفهوم الاغتراب اصطلاحا:

الاغتراب مصطلح نقدي عُمّم لوصف ظاهرة سلبية متمثلة في اغتراب الفرد عن مكانه وأهله ووطنه الذي يعبّر عنه ويرى بعضهم بأنه "طوعي يختاره الإنسان لأسباب منها: عدم الانسجام مع المجتمع والعجز عن الانتماء، وعدم الرضا بالتقاليد والأعراف والمخالفة، وكثيرًا ما يشعر المغترب بالوحدة، والعزلة، والفراغ النفسي، كذلك شعوره بافتقاد الأمن وسوء العلاقات الاجتماعية وافتقاد الطمأنينة "[1].

فالاغتراب يخلّف للفرد اضطرابات نفسية وعقلية مما يجعله يحسّ بالضياع والجفاء، وعدم الارتياح.

ويعدّ الفكر الغربي سبّاقا إلى البحث في ظاهرة الاغتراب ومحاولة تتبّع أصولها وجذورها، حيث يذهب معظم الدّارسين إلى أن الجذور الأولى لمصطلح الاغتراب هي جذور يونانية، وذلك من خلال كتابات **أفلاطون** التي أسست لفكرة الاغتراب وعالجت موضوعه وذهب بعض الدارسين إلى عدّ " فكره بذاته أوّل اغتراب واعٍ، عندما قسّم العالم إلى مطلق ووجود، والمطلق هو عالم المثل والوجود هو عالم الظلال والصوّر المشوشة، ثمّ كانت جمهوريته تجسيدًا لهذه الفكرة الاغترابية "[2]

أما **سقراط** فقد عدّت عبارته الشهيرة " اعرف نفسك " مثالا حيا وحقيقيا لاغتراب الإنسان عن نفسه وذاته، وعدم إدراكه ومعرفته لماهيته، لهذا نصح سقراط بالبحث عن النفس التي ضاعت من صاحبها ولم يعُد يعرفُها.

ويتّفق أغلب الباحثين على أن **هيجل** هو أوّل فيلسوف وظّف مصطلح الاغتراب توظيفا فلسفيا متميزًا عن غيره، وأعطاه اتجاهًا مغايرًا لسابقيه، فالاغتراب عنده "يفيد عملية تحوّل

[1] يحي الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان)، دار مجدلاوي، عمّان، الأردن، ط1، 2007، ص45.

[2] عادل الألوسي، الاغتراب والعبقرية، دار الفكر الغربي، القاهرة، مصر، ط1، 2003، ص12.

الإنسان من شخصية أبسط إلى شخصية أغنى، بمعنى أن العقل المطلق قد خلق الطبيعة والإنسان، فطرح جزءا من نفسه وصار هو نفسه هذا الجزء من خلال سيطرة العقل المتناهي – الذي هو الإنسان– على الطبيعة وليس التاريخ إلى محاولة الإنسان الدائبة لمعرفة الطبيعة والسيطرة عليها "[1].

فالاغتراب بهذا هو انفصال الجزء عن الكل، وانفصال الخاص عن العام، ومن هنا يستطيع الإنسان السيطرة على الطبيعة وذلك من خلال فهمه لها ووعي خصوصياتها.

ثمّ يتخذ مفهوم الاغتراب معنى أعمق مع **ماركس**، حيث كان مفهومه للاغتراب الأكثر شيوعا في الفكر المعاصر كونه مرتبط بالواقع المادي والنواحي الاقتصادية، ممّا جعله يؤثر في معاصريه "فقد تحدّث عن اغتراب واقعي ملموس، وجاءت أفكاره مستخلصة من التناقضات الحادّة بين الفرد وذاته، وبين الفرد وعمله، وبين الفرد ومجتمعه، وهو يرى بأن الرأسمالية جرّدت الفرد من إنسانيته وحوّلته إلى مجرّد سلعة حين أكّد بأن العامل مُستغّل وأنه مغترب في عمله في النظام الرأسمالي، حيث يصبح منتوجه غريبا عنه"[2]، وهذا يجلي نسبة الضغوطات التي يتعرض لها الفرد فتسلمه بداهة إلى نوع من الاغتراب المضني.

أمّا **جون جاك روسو** فهو أوّل من استخدم كلمة الاغتراب بمعناها السياسي ذلك من خلال تطرّقه لاغتراب حقوق الفرد الطبيعيّة والتي له فيها نصيب "ولعلّ الجذور الاجتماعية لهذا المفهوم إنّما تنتمي إلى طبيعة حياة روسو، فمن المعروف أن روسو عاش غريبا بين البشر وكان يشعر بأنّه غريب في العالم، إذ أن معارضته للمجتمع وعدم رضوخه لمسلماته الفكرية والاجتماعية والسياسية جعلته يتمرّد وينعزل عن الناس وينطوي على نفسه"[3].

---

[1] محمد الهادي بوطارن، الاغتراب في الشعر العربي الرومانسي " مقارنة موضوعاتية للخطابات الشعرية لإيليا أبي ماضي وإبراهيم ناجي وأبي القاسم الشابي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، ط1، 2010، ص30.

[2] قيس هادي أحمد، الإنسان المعاصر عن هاربرت ماركيوز، المؤسسة العربية للدّراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1980، ص97.

[3] صالح زامل، تحوّل المثال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003، دط، ص23.

هكذا عكس **روسو** مفهوم الاغتراب من خلال تجربته في الحياة وفكرة العقد الاجتماعي الذي اغترب عن حقيقته وأصل ما وضع له، ليعم الاغتراب وتُسلب الحقوق ويفقد الانسان مكانته في المجتمع فيعيش بذلك غريبا في أرضه.

ثم شهد بعد ذلك مصطلح الاغتراب رواجًا وانتشارًا أكثر مع الفلسفة الوجوديّة وأعلامها، ومن بينهم " **سارتر** " الذي يذهب إلى أن الاغتراب " ظاهرة اجتماعية ذات جذور تاريخية وواقعية.. في الصّراع مع علاقات الإنتاج وأصبح العمل الأخلاقي مغتربا، ولم يعد الإنسان يتعرف على نفسه في إنتاجه وبدا له عمله كقوّة معاديّة له "[1]

يرى **سارتر** بأن الاغتراب هو الحالة والمرحلة التي يصل إليها الإنسان عندما يفقد القدرة على القيام بدوره الاجتماعي فتنهار شخصيته. كما يفسّر الاغتراب بانعدام الحرية الإنسانية، حيث أن الفرد يُحرم من ذاته الحقيقية فلا يستطيع التعرّف على نفسه ويغترب عنها، ويخضع لسيطرة الآخرين ويُجبر على تقبّل القيم والعادات السائدة في المجتمع دون أن يعترض عنها أو يرفضها "فالإنسان يعيش منذ صغره هذا الصّراع مع الذات، لأن الإنسان يفرض عليه نموذج الإنسان الاجتماعي الذي سيكون عليه في المستقبل وهذا الوضع قد يتقبله أو يرفضه"[2].

أمّا في الفكر العربي فلنا ان نلمح إلى أن القرآن الكريم تحدّث عن موضوع الاغتراب؛ اغتراب الإنسان عن الله واغتراب الإنسان عن الإنسان " فخروج آدم من الجنّة وهبوطه إلى الأرض كان أول اغتراب له، ومحنة الإنسان مع الشيطان كان اغترابا آخر"[3].

---

[1] سمية بن عمارة، منصور بن زاهي، الشعور بالاغتراب الاجتماعي لدى الشباب مستخدمي الانترنيت، دراسة نفسية تربوية، مخبر تطوير الممارسات النفسية والتربوية، ع10، 2013، ص53.

[2] حياة خلفاوي، مفهوم الحقيقة عند مارتن هيدجر (من الوجود الزائف إلى الوجود الأصلي) مذكرة نيل شهادة ماجيستير، إشراف فريدة غيوة حيرش، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005-2006، ص 238.

[3] عادل الألوسي، الاغتراب والعبقرية، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 2003، ص3.

فهذه صورة عن اغتراب الإنسان عن ربّه عندما عصاه ولم يفعل بما أوصاه، فأخرج من جنّات النعيم إلى أرض خالية موحشة، وبعد أن غفر المولى لآدم بعد توبته وتقرّبه من الله خفّت مشاعر الغربة على الإنسان يقول تعالى:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ ﴾ البقرة:37

أمّا غربة الإنسان عن الوطن فمردها إلى اغترابه عن أهله وأحبابه، وعن رحم غرف منها الأمن والطمأنينة، لذلك يعقبه دوما حنين مضني، وهو غريزة في النفس عند جلّ الكائنات الحيّة، وعن تعلّق الناس بأوطانهم موطن الدعة تؤشر الآية ملمحة إلى سبب العصيان:

﴿ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ ﴾ النساء: ٦٦

كما ورد مصطلح الاغتراب في الأحاديث النبوية الشريفة حيث قال عليه الصلاة والسلام في وصف اغتراب الإسلام وحالة المسلمين: "بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء، قال قيل: ومن الغرباء، قال النزاع من القبائل"[1] .

وقد بكى الرسول صلّى الله عليه وسلّم لفراق موطنه الأصلي مكّة عندما هاجر إلى المدينة.

ولعلّ أبلغ تعريف عند العرب القدامى لمعنى الاغتراب هو ما أشار إليه **أبو حيّان التوحيدي** في كتابه (الإشارات الإلهية) حين قال "فأين أنت من غريب قد طالت غربته في وطنه وقلّ حظّه ونصيبه وسكنه؟ وأين أنت من غريب لا سبيل له إلى الأوطان ولا طاقة به

[1] أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، الصحيح، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، ص90.

على الاستيطان" [1] ولعل هذا إلماح غير مباشر إلى كنه الاغتراب الذي جلاه الفكر الصوفي ونفذ إلى حقيقته.

وما قدمه **ابن طفيل** في قصة "**حي بن يقظان**" يجسّد اغتراب الإنسان فيصور تخطّيه هذه الغربة ليلتحم بالطبيعة، فتكون الطبيعة وما فيها من حيوان ونبات أهلاً له، حتى يتطور وتنمو مداركه ويصل إلى الكلام، ومن ثمّ يسمو إلى الحقيقة التي أوّلها معرفة الله"[2]

هذا ما يصل إليه المتصوفة من المشاهدة والفناء بحب الله، حيث استخدم أهل التصوّف مصطلح الاغتراب بأنه "ظاهرة ايجابية لأنهم وجدوا فيه الطمأنينة والسكينة وراحة القلب، ولذلك كانوا حريصين على التقرب إلى الله، فلم يحنّوا إلى سواه، ولم يطلبوا حاجة عند غيره"[3]

فغربة الصوفية غربة روحية، فهم يغتربون عن أنفسهم وحتى عن مجتمعاتهم، ويفنون ذواتهم للوصول إلى الذات الإلهية، وبالتالي تختلف غربتهم عن غربة الأناس العاديين الذين يعانون من القلق والألم واليأس بسبب تلك الغربة.

وحديثا يلتفت الدارس **عبد السلام الشاذلي** ليقول: "إن الاغتراب بكلّ حوافزه (التغريبية) ظاهرة موغلة في القدم في أدبنا العربي القديم، فالمنهج المنفي للقصيدة العربية في العصر الجاهلي عند امرئ القيس، وعبيد الأبرص، وغيرهما من أصحاب المعلقات، ماهي إلاّ ردّ فعل شعوري أو غير شعوري على غربة العربي البدوي وسط الصّحاري الشاسعة، وما الأطلال في مقدمة تلك القصائد العربية القديمة غير حافز تغريبي لتدفقات الشعورية الأولى

[1] معتز قصي ياسين، الاغتراب في شعر أحمد مطر، مجلة تشرين للدّراسات والبحوث العلمية، السنة السابعة، ع14، 2012، ص49.

[2] عادل الألوسي، الاغتراب والعبقرية، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، ص 63.

[3] صالح زامل، تحوّل المثال، المؤسسة العربية للدّراسات والنشر، بيروت، 2003، دط، ص21.

في المبنى العام للقصيدة العربية القديمة، وهو حافز يدفع دائما إلى تنشيط جدليات الوعي الفني لدى الشاعر الجاهلي."[1]

وبالمقابل يشير **صلاح فضل** إلى أن الاغتراب هو: "نوع من الاضطراب في علاقة الفرد بنفسه والعالم، حيث يشعر المرء بأنه غريب عن ذاته، منفصل عن واقعه بسبب فقدان المعنى المتمثّل بصورة أساسيّة في الهدف والقيمة ممّا يعطّل الحركة الديناميكية مابين الذات والواقع "[2].

فالتعاريف تفضي إلى أن الاغتراب ظاهرة عامّة تبدأ بانفصال الفرد عن الآخرين أو لتنتهي إلى انفصاله عن ذاته وما يعقب هذا من الإحساس باليأس والعجز، وفي هذا يقول فيصل عباس: "ارتبط مفهوم الاغتراب بالانفصال والابتعاد عن الأرض، بكل ما هو موحش وحزين ومسبّب للشقاء، فتجاوز المدلول المادّي إلى ما هو أعمق وأبعد من ذلك، والذي يتجلّى في المعنى الحسّي المتعلّق بالنفس والجانب الروحي"[3]

أما حسين جمعة فيرى أنّه "مفهوم يؤكد التجاذب النفسي بين الرضا والرفض، بين الحرية والقهر، بين الانفتاح والانغلاق، بين الرجاء والإحباط، بين سقوط الإنسان ومحاولة تجاوز هذا السقوط أو الانحراف، بين التوازن والاضطراب... إنّه بمعنى آخر تعبير عن التوتر والقلق النفسي وضياع الذات أو استشعار الخوف من فقدان الأمن والأمان، والفرح والسعادة، والتواصل مع الجوهر الطبيعي."[4]

---

[1] عبد السلام محمد الشاذلي، حول قضايا التغريب والتجريب، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، لبنان، بيروت، 1985، ص68.

[2] يونسي كريمة، الاغتراب النفسي وعلاقته بالتكيّف الأكاديمي لدى طلاّب الجامعة، أطروحة لنيل الماجيستر، إشراف بوكرمة فاطمة الزهراء، قسم علم النفس، العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، (2011-2012)، ص28.

[3] فيصل عباس، اغتراب الإنسان المعاصر وشقاء الوعي، دار المنهل اللبناني، لبنان، ط1، 2008، ص21.

[4] حسين جمعة، الاغتراب في حياة المعرّي وأدبه، مجلّة جامعة دمشق، ع1+2، 2011، ص24.

فالاغتراب هو تلك الحالة التي يتعرض فيها الإنسان إلى الضعف والعجز والاكتئاب والانهيار في شخصيته وذاته، وإحساسه بالانفصال عن الآخرين وعن المجتمع ككل.

جـ- مظاهر الاغتراب في الرواية:

قد يكون الاغتراب جسديا أم روحيا، يعني قد يعيش الإنسان الاغتراب وهو بعيد عن أرضه ووطنه وأهله فيكون مغتربا خارج أرض الوطن، أو يعيش ذلك الاغتراب وهو في وطنه وبين ذويه، وهذا ما صوّرته الكاتبة في روايتها من خلال شخصية "عباس" الذي عاش الاغتراب وهو منفي عن أرض وطنه، وشخصية "أبو رجا" الذي كان أسيرا في وطنه فعاش بذلك غربته داخل السجن، فيجمع البعد السياسي للوطن في رواية " ربّ إنّي وضعتها أنثى " بين شقين اثنين هما:

ج-1- الاغتراب خارج أرض الوطن:

الإنسان بلا وطن كالجسد بلا روح ولا إحساس، والفاقد لوطنه فاقد لهويته وأمنه واستقراره، وإحساس الإنسان بأنه سيغرّب ويبعد عن أرضه وأهله وذويه يزيد من حبه لوطنه، ويجعله يدافع عنه بكلّ قوته ليرفض هذا الإبعاد الذي يرغم ويجبر عليه.

والرواية تلح على تصوير معاناة الفلسطيني خارج أرض وطنه ومدى اشتياقه له من خلال شخصيّة **عباس** الذي يردد: "ثمّة وطن قد فقدته هناك.. فكلّ البلاد بعده سواء.. [1]

يفقد عباس وطنه، وعندما يغيب الوطن تغيب الحياة كلّها، فلا مكان يصلح للحياة بعده. بل ما يفعله اللاجئ الفلسطيني إنما هو بحث لنفسه ولأهله عن موت جديد في مكان آخر غيره. يصف **عباس** رحلة اغترابه فيقول: "خمس سنوات في عمّان لتبدأ بعدها رحلة الاغتراب من جديد، وكأن قدر الفلسطيني البحث عن حتف جديد، عن لقمة بلا طعم صبّاري، عن نسيان يرشف الذاكرة... لم أكن أعلم أن رحلة الاغتراب ستطول وتطول، أربعون عامًا قضيتها بين مغرب العالم العربيّ ومشرقه، بينما وطني الذي اقتلعت منه تتخمّر

[1] نردين أبو نبعة، ربّ إنّي وضعتها أنثى، ص18.

فيه نبرة العتاب وتعبق فيه رائحة الدم... نمت أوّل ليلة غربة.. هل نمت حقًا؟ ها أنا أستبدل مدينة بمدينة، مدينة جديدة أحاول أن أستكشف تقاسيمها وأخلع معطفها الليلي لأراها بوشاح الصّباح البهيّ...ها أنا أكتشف أنّ للوطن امتدادًا سحريًا وأنّ الوطن قد ينبعث من صقيع الغربة..[1]

يبدأ **عباس** رحلة الاغتراب ويشعر بمرارتها وبشاعتها منذ ليلته الأولى، فترْك الوطن هو موتٌ قبل الموت، هو حرمان من كلّ شيء، حرمان من الأهل والناس، من رائحة الأرض بل وحتى رائحة خشاشها، وهذا ما تغرف منه ذاكرة عباس: " تحيط بالبيت أشجار البرتقال، أقطف برتقالة، أندهش من رائحتها، من لمعانها وتمايلها بين أصابعي العاشقة الولهى أخالها برتقالة فلسطينيّة تدحرجت لتنقر على زجاج غربتي معزوفة سكينة وأمان، أمسح عليها بكلتا يدي أشعر بوخزات في صدري فلن أحتمل المزيد.. ما أصعب أن يكون وطنك في يديك ولا يكون، في الساحة الخلفيّة للبيت أرى أشجار الصّبّار الذي ينبت حول دارنا في الزّاوية الفلسطينية... هل سيصبح الصّبّار حرزي القادم عندما أوشك أن أغفو؟ خفت لوهلة خفت أن أتيه في تيارات ريح الغربة فجاء ليعلّمني كيف تتّزن أجنحتي، وكيف أتحكّم في بوصلتي رغم سفري الطويل، جاء ليعلّمني الحذر من عبث الغربة بذاكرتي... الزّاوية مرّة أخرى، ويرفض طعم زيتونك أن يفارق لساني وترفض ريحك الزّاهية إلاّ أن تداعب قسماتي، كنت أتوقّع أن أشدّ على جرحي من ملح الغربة وغربة الفلسطيني ليست كغربة غيره.. "[2]

خلال رحلات الفلسطيني **عباس** باحثا عن مستقرّ لنفسه لا يغيب وطنه عن باله، فتصبح كل الأشياء التي تصادفها ذكرى لوطنه حتّى الثمار، فالبرتقال والصّبّار والزيتون تشْعل النار ويحمي عليها في صدره. وما يزيد اتقادها ما يقوله في هذه المقاطع: " أنا هنا

[1] المصدر السابق، ص19-20.

[2] نفسه، ص21-22.

لأنّي مبعد.. يحرم علي دخول وطني ودول الجوار تحمي حدود إسرائيل وتمنع أيّ محاولة للتسلل "[1]

ويقول في موضع آخر: "طُردنا من بلانا، وتكالب علينا الطغاة والقتلة وأولاد الخنازير والقردة. راهنوا أنهم سيمحوننا من الذاكرة ومن الخارطة، وأنا في أشدّ حالاتي حزنًا أراهن على فلسطينيّتي وأني باق، باق بإخوتي المنفيين وبإخواني الجدد وبأطفالي القادمين وبرجالنا وراء القضبان. سننتصر في اللحظة التي نظن فيها أنّه لا فائدة.."[2]

ولعل في هذا الجواب سرّ الانتصار الآتي.

وقد جاءت الرواية في بعض وجوهها لتدفع تهمة الفرار من الوطن وإسلامه للعدو ضعفا وتوانيا لتؤكد أن اغتراب الفلسطيني خارج أرض الوطن إنّما هي هجرة اضطراريّة ومحتّمة وليست اختياريّة، والعودة إلى الوطن من الثوابت التي تسعى لتحقيقها عبر شخصية **عباس**.

وإلحاحا في بيان أثر النزوح القهري والإقامة خارج أرض الوطن تنتقي نردين العبارات التالية وتلقيها على لسان بطلها: "في الغربة قد تظنّ لوهلة أنك قد تركت كل شيء وراء ظهرك واسترحت لتنعم بلحظات هدوء مسروقة، قد تعتقد أنك تركت أقدامك تسبح بحرية في الفراغ هكذا بلا هدف ولكن بكثير من اللذة والنشوة، تشعر أحيانا بالامتنان الصادق لها وقد تظن أنك تخلصت من مفتاح بيتك الجاثم فوق صدرك...في الغربة تختلف الأحاسيس والأصوات والصّباحات وحتّى الروائح، ولكن في لحظة، تعرف أنك مازلت واقفا أمام عتبة وطنك وأنّ مفتاح بيتك مازال في يدك ومعلقًا في رقبتك..."[3]

إنّ صورة الغربة خارج أرض الوطن عند **نردين أبو نبعة** جرم سياسي، تواطأت عليه قوى العدوان مع الدول الشقيقة (دول العروبة والملة الواحدة) وهذا ما أملى على المغترب

[1] المصدر السابق، ص101.

[2] نفسه، ص110.

[3] نفسه، ص126.

ضرورة شحذ ذاكرته حتى لا ينسى؛ لا ينسى حقّه وصراعه مع عدوه الظاهر وبالمقابل حتى يحفظ للتاريخ أسرار المتواطئين المتوارين.

ج-2- الاغتراب داخل أرض الوطن:

ظاهرة الاغتراب من أكبر الظواهر المنتشرة في المجتمعات العربية بشكل واسع كبير، وقد عرف العالم العربي هذه الظاهرة منذ زمن بعيد وهي الهجرة من الوطن الأصلي أو الوطن الأمّ إلى بلد آخر بغرض العيش في استقرار وطلب الرزق، أو هربا من الأوضاع المزرية والاضطهاد السياسي الاقتصادي والاجتماعي وحتى الدّيني، لكن ما ينشر الآن في المجتمع العربي وخاصّة الفلسطيني ظاهرة جديدة لا بدّ من التوقّف عندها وهي الغربة داخل أرض الوطن حيث يقول في هذا **زكريا إبراهيم:** "إن الاغتراب ليس مجرد قطيعة تتمّ بين الطبيعة والمجتمع، أو مجرّد تصدُّع يحدث بين التكنية والإنسانية، وكأنما هو وقْف على المجتمعات الصناعية التي بلغ فيها الإنتاج الاقتصادي أعلى مداه، وإنّما الاغتراب أيضا تعبير عن الحرمان والضياع، خصوصًا حين يجيء المستعمرُ فيسرق من الجماعة التي يستعمرها أرضها وحضارتها ولغتها وشخصيتها .. إلخ. ومن هنا، فإن الإنسان العربي الذي ذاق مرارة الاستعمار لم يلبث أن وجد نفسه غائبًا عن أرضه وعمله، غريبا في صميم وطنه وفوق تربة أجداده، وهكذا كان الشعور بالاغتراب – لدى الإنسان المعاصر- بمثابة إحساس أليم بالحرمان المادّي والضياع الروحي، وكأن المستعمر قد سلبه شخصيته وثقافته قبل أن يسلبه أرضه وخيرات بلاده "[1] وهذا الواقع يعيشه المجتمع العربي أكثر من المجتمع الغربي.

لاشك أن قمّة الاغتراب أن تكون غريبا بين أهلك وديارك ومنفيا في وطنك، فهذا أشدّ أنواع الغربة ألمًا وأقساها مرارةً حيث يؤكد هذا **التوحيدي** في قوله: " وأغرب الغرباء من صار غريبًا في وطنه، وأبعد البعداء من كان بعيدًا في محلّ قربه."[2]

---

[1] زكريا إبراهيم، معنى" الاغتراب " عند الإنسان المعاصر، مجلة العربي، ع194، الكويت، 1975، ص 153-154.

[2] أبو حيّان التوحيدي، الإشارات الإلهية، تحقيق عبد الرحمن بدوي، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، مصر، 1950، ط1، ص80-81.

وقد تتعدّد الأسباب التي تجعل الإنسان يعيش الاغتراب في وطنه، إذ يعتبر الواقع اليومي الذي يعيشه المواطن العربي تعبير عن الحالة الاغترابية التي يشعر بها، ويتميز الواقع السياسي والأمني في المجتمعات العربية بالظلم والقهر والاضطهاد والحكم السلطوي، وكذلك البرجوازية الرأسمالية التي تسيطر على النظام الاقتصادي. هذا فضلا عن الإغتراب الناجم عن اغتصاب المستعمر لأرض الوطن، وتضييقه على أهلها، وإحالة أحيان قرى بأكملها إلى سجن ومعتقل جماعي.

أما الاغتراب الذي يعيشه شخوص الرواية وبخاصة شخصية **أبو رجا** فهو الاعتقال والأسر في سجون الصهاينة، ولم يكف سلب حريته بمواراته خلف القضبان بل كان يعذّب بأشدّ أنواع العذاب يقول: "ما كدت أحلف اليمين حتّى كانت يدا (ميخا) وبكلّ ما فيهما من القوّة تهوي على وجهي تعصره عصرًا حتى سال الدّم غزيرًا من فمي فقد وقعت أسناني الأمامية بلكمة واحدة... أحدّق في الدّم السائل غزيرا من فمي. الصّمت.. الصّبر هما شكلا المقاومة الجديد في غرفة التحقيق "[1].

ويصف طريقة تعذيبه في موضع آخر: " كيس نتن ذو رائحة كريهة ينغرس في الرأس، كبرياء وفخر ينزرع في الحلق ينشر قوّة وصمودًا في أنحاء الجسم المقيّد على كرسي مثبّت بأوتاد من حديد إلى الأرض مع خلفيّة مقوّسة إلى الدّاخل بحيث يصبح ظهري على شكل قوس مشدود، قدماي مقيّدتان ويداي تمّ إخراجهما من خلف الكرسيّ وتقييدهما لتبدأ رحلة الشبح والتعذيب... كنت أسمع من رفاقي الذين سبقوني بالإيمان.. أقصد السجن.. أن التعذيب بعدم النوم هو أقسى أنواع التعذيب وأمرّه. عندما يسّلط الضوء على عينك على مدار الأربع والعشرين ساعة.. تودّع عيناك قرار البقاء... أقترب من حافة الانهيار"[2]

بالرغم من أن الفلسطينيّ يعذّب كل أنواع التعذيب إلاّ أنه يبقى صامدًا ويحمل أسلحة الصبر والصمت والدعاء.

[1] نردين أبو نبعة، ربّ إنّي وضعتها أنثى، ص34-35.

[2] نفسه، ص36-37.

هكذا جسدت الشخوص ما يعيشه الفلسطيني من أنواع الغربة يقول الأسير **أبو رجا:** " أيقظت داخلي طائر الحرف العربيّ الذي لم أفطن له يومًا، لم أشعر بحلاوته، أيعقل أن يشتاق السجين حتّى للحرف؟ ما أوجعه من ألم، أن تشتاق لتجرّب صوتك بالحرف العربي... من كان يظنّ أنّ ضوء الشمس والحرف العربي سيصيران أقصى ما يتمنّاه سجين فلسطيني تمعن الوحدة والظلمة في ظلوعه حفرًا ونخرًا.."[1]

يفقد السجين الفلسطينيّ هويته ولغته العربية، ويصبح أقسى ما يتمنّاه أن يجرّب صوته بالحرف العربيّ، فأيّ غربة هذه أن تكون في وطنك وأنت محروم حتّى من هويتك اللغوية.

لكنما "الأزمة تلد الهمة" – كما يقال – لذلك كان أبو الرجا يقول: " في هذه الزّنزانة يزهر الوطن في قلوبنا ليمنحنا رجولة مكابرة صامدة. هذه الزنزانة ستمنحنا وطنًا كبيرًا يتّسع لنا وللمنفيين والمطرودين والمهجّرين."[2]

يقول **فوكو:** "يجب ألاّ ننظر إلى السجن كمؤسسة جامدة هزّتها حركات الإصلاح على دفعات، فكانت "نظرية السجن" أسلوب عمله الثابت بدلاً من أن تكون انتقاده الضمني... فاستمرّ السجن دائما جزءًا من حقل ناشط كثرت فيه المشاريع، وإعادة التنظيم، والتجارب والخطابات النظرية، والشهادات والتحقيقات، فلقد كانت تحيط بالمؤسسة السجينة كثرة من الكلام والإطناب، ويشار حولها حماس واهتمام كبير، فهل كان السجن حقًّا منطقة مظلمة ومهملة؟.. "[3]

تجيب الروائية **نردين أبو نبعة** عن هذا السؤال وترى بأن السجن ليس مجرّد مكان مظلم ومهمل، بل له دوره الكبير والفعّال في ايقاظ الحسّ وإثارة الانتباه، يقول أبو الرجا: " السجن يكشف لنا ذاتنا فنرى أشياء لم نكن نراها من قبل ونحس بأمور ما كانت لتخطر على بالنا،

[1] المصدر السابق، ص44-46.

[2] نفسه، ص121.

[3] ميشيل فوكو، المراقبة والمعاينة " ولادة سجن"، ترجمة د: علي مقلد، مراجعة وتقديم: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990، ص238.

ويتكوّن جنين أقوى من ذاتنا الحقيقية، ثمّ لا يلبث حتّى يولد بين أيدينا، نتأمّل ملامحه التي تشبهنا وننبهر به ولا نصدق أننا كنّا نحمل هكذا جنينًا تلقّح على حين غفلة من السّجّان... وفي السجن تعلو قيمة الأشياء التافهة والبسيطة أو التي كنّا نظنها هكذا... في السجن لا مكان للاشتهاء ولا للنظارة ولا للحركة فكلّ شيء آسن ذو رائحة كريهة... السجن يسقي بذورًا نائمة ونوازع وميولاً وقناعات كان يمكن أن نموت دون أن نتعرّف عليها أو نلمسها في أنفسنا فلم أكن أعرف أنّي أمتلك قوّة تجاه الألم... تعلّمت في السّجن أن أرفع رأسي ولا أنحني أمام الألم، تعلمت أن أحترمه، أوقره وأتعلم أبجدياته فلقد وسّع الألم ذاتي... الألم في السجن يمنحنا قوة فوق قوتنا فبالألم تصبح أقوى من الجلاّد، تصبح حرًا بعد أن كنت عبدًا لذاتك التي تحبّ اللذة والراحة والرفاهية.."[1]

يصير العدو في أقصى حالات عداوته وتنمره مدرسة يستقي منها داخلوها أرقى الدروس التي قد لا يحضون بها ولا يحصلون عليها في مكان آخر، فهل هي الأزمة التي تلد الهمة أم هي الأضداد التي تتميّز بها الأشياء. كيف لا وأنت تحسّ أنّك تتدرب للحظة دخول القبر كما وصفه أبو رجا في قوله: " كانت زنزانتي في الجهة الشمالية من سجن عسقلان معتمة جدًا، فلا هواء يدخلها ولا شمس.. رطبة.. ضيّقة، هي بروفة افتراضية للقبر"[2]

هكذا قررت الطبيعة؛ عندما يحبس الجسد في سجن الغربة تحلّق الروح وتتفتق الرؤيا ليصير البصر حديدا "في هذا العزل بدأت أكتشف معادلات ذات نتائج غريبة، معادلات جديدة يجب أن تكتب في دفتر كيمياء الحياة. المعادلة المكتشفة هي: حبس الجسد = تحليق الروح بعيدًا.. بعيدًا. فعندما يحبس الجسد تحلّق الروح وتطير بعيدًا بلا قيود.. تستحضر كلّ الصّور والأعراس وأشياء كثيرة لا أستطيع حصرها.. [3]

[1] نردين أبو نبعة، ربّ إنّي وضعتها أنثى، ص160-161.

[2] نفسه، ص 45.

[3] نفسه، ص47.

في السجن يفتقد الأسير كلّ أحبابه وكلّ اللحظات والمناسبات التي تفكّره بأهله كالأعراس والأعياد وغيرها ممّا تزيد من ألم غربته، يأتي العيد على أبو رجا وهو في السجن فيقول: " اليوم هو أوّل أيّام عيد الأضحى المبارك، كم كان قاسيًا عليّ أن أحتمل فكرة خواء الزنزانة في يوم كهذا، كم كان مؤلمًا أن يرقص خصر العيد فيما أنا أتلوى مذبوحًا من العزلة والوحشة في القبر الافتراضي، في هذه اللحظة بالذات أنا لا أحلم بالحريّة، بل أحلم بالعودة فقط إلى إخواني الأسرى في الزنزانة الجماعية، أن أشاركهم معاناتهم... على مرمى النزف لم أسمع تكبيرات العيد، لم أقف بعد انتهاء الصّلاة في الزنزانة الجماعية... يومها كم ظئمت شفتاي لأنشودة العيد السّجين والتي كانت تشبه قوس قزح... ذات عيد لم أشمّ رائحة القهوة السادة، لم أقبّل يد أمّي المدهونة بزيت الزيتون وهي تخبز لنا صباحًا، لم أسمع يابابا بدنا منّك عيديّة.."[1]

يزيد العيد من حرقة الأسير **أبو رجا** ومرارة اغترابه ووحدته، فيفقد أهله أحبابه حتّى تكبيرات العيد وقهوةُ صباحه، وتصبح أمنيته محدودة فيتمنّى فقط أن يكون في الزنزانة الجماعيّة مع باقي الأسرى كي ينقص من آلام وحدته.

عكست الكاتبة **أبو نبعة** صور الغربة سواء خارج الوطن التي مثّلها "**عباس**" المنفي عن وطنه قهرا وظلما، والغربة داخل أرض الوطن التي عاشها عمّها "**أبو رجا**" داخل أرض وطنه في الزنزانة حيث كان محرومًا من كلّ حقوقه الوطنية بل حتّى من أبسط أمنياته، فجلتها على لسان شخصيّتها قائلة: "الغربة صباحها وحشة بلا رائحة قهوة، وليلها رسائل مقروءة، وقُبل منتظرة، وخطايا مخبّأة، وضفائر مقصوصة، أنفاس مرتعشة.. عتاب.. آهات.. نصفها جنون وجنونها عقل... تغترب لتبتعد عن وهج الحقيقة والواقع. عن رائحة المقاومة. عن ارتعاش الرّوح عندما يعزف ناي الوطن. لكنك تكتشف أن الغربة مرآة تعكس ما وراء ملامحك... فالغريب يضيق بالغربة وإن اتسعت، والسّجين يتسع بالسّجن وإن

[1] المصدر السابق، ص 152-153.

ضاق.. ".[1] وها هنا في العبارة الأخيرة "فالغريب يضيق بالغربة وإن اتسعت، والسّجين يتسع بالسّجن وإن ضاق.." تكمن المفارقة التي يجلبها الإنسان لبني جلدته.

هكذا تحمل الغربة داخل أرض الوطن وخارجها بعدًا سياسيًا ونفسي عميقًا لأنّها تعكس معاناة الأديب نفسه داخل أو خارج وطنه، فيما تصور معاناة شخوصه.

2- البعد النفسي لصورة الوطن في الرواية:

لقد استطاع المستعمر الصهيوني بمكره وظلمه أن يتجاوز التعذيب المادي للشعب الفلسطيني ليركز على التعذيب المعنوي الذي يراه أكثر إيلاما وأبلغ تأثيرا ليوقع نوعا من الغربة النفسية التي قد تؤدي إلى الانتحار أو اليأس الجالب للهلاك.

إذ يأخذ الاغتراب في المجال النفسي مفهومًا يشير إلى درجات من الاضطراب في نفسية الشخصية وعلاقتها مع الآخرين، يقول **المغربي:** " الاغتراب هو انتقال الصّراع بين الذات والعالم المحيط به من المسرح الخارجي إلى المسرح الداخلي في النفس الإنسانية، إنّه اضطراب في العلاقة التي تهدف إلى التوفيق بين مطالب الفرد وحاجته وإمكانياته من جانب، وبين الواقع وأبعاده المختلفة من جانب آخر "[2]

ويأخذ الاغتراب النفسي مفهوما أدقّ مع **النكلاوي** حين يقول: "الاغتراب هو عدم قدرة الفرد على التواصل مع نفسه وشعوره بالانفصال عمّا يرغب في أن يكون وبين إحساسه بنفسه في الواقع، أي أنّه الفرد الذي ينفصل عن ذاته الحقيقية وعن مشاعره يشعر بأن وجوده غير حقيقي "[3].

---

[1] المصدر السابق، ص187-188.

[2] سعد المغربي، الإنسان وقضاياه النفسية والاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993، ط1، ص22.

[3] أحمد النكلاوي، الاغتراب في المجتمع المصري المعاصر، دراسة تحليلية ميدانية لافتقاد القوة في ضوء الاتجاه الماكروبنيوي في علم الاجتماع، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1979، ص40.

وهذا يجلي نوعا من السكيزوفريني أو انفصام الشخصية، وهي حالة مرضية عصية تجعل الفرد يشعر بأنّ ذاته غير حقيقية، وفي حالات أخرى تظهرُ الشخصيات والمواقف المألوفة للفرد كموضوعات غريبة عليه ولا يعرفها ممّا يجعله فاقدًا لذاته ولمن حوله.

ويعدّ **سيغموند فرويد** من أبرز علماء النفس الذين تطرّقوا لظاهرة الاغتراب وناقشوها مستخدمًا في ذلك مصطلحاته الشهيرة التي يعتمد عليها في دراساته وهي "الأنا، الأنا الأعلى، الهُو" حيث يرى بأن: " الاغتراب ينشأ أساسيا إذا ما فشل الأنا في أداء وظيفته المتمثلة في العمل على التوفيق بين مطالب "الهُو" والأنا الأعلى" بالإضافة إلى مطالب العالم الخارجي، وتكمن ضريبة هذا الفشل في الشعور بأنّ أجزاء من بدننا بل وعناصر من حياتنا النفسية، من إدراكات وأفكار ومشاعر قد تبدو لنا في بعض الأحوال غريبة وأجنبية لا تؤلف جزءًا من الأنا"[1].

أي أنّ الأنا تتعرض للكبت والضغوطات التي تطمح إلى إشباعها وتكون غير مناسبة مع العالم الخارجي فتأتي ردّة الفعل سلبية اتجاهه وتصبح هذه الحالة غريبة عنده، فتتعرض الأنا للاغتراب مع الهُو والأنا الأعلى في نفس الوقت بسبب سلب حريّتها، حيث إذا خضعت للأنا الأعلى والواقع فهي تنفصل عن الهُو، وإذا انفصلت عن الأنا الأعلى والواقع فهي تخضع للهُو.

فالاغتراب النفسي من المشاكل النفسية والاجتماعية المؤلمة والمعقّدة التي يتعرض لها الفلسطيني، ذلك نتيجة لعدم شعوره بالأمن النفسي والطمأنينة وراحة البال الذي يجلبه الشعور بالوحدة والغربة والعزلة، وهذا ما تطرّقت إليه الروائيّة **أبو نبعة** من خلال شخصية الأسير "أبو رجا" حيث عانى هذا الأسير من غربة روحية عميقة جرّاء سجْنه واعتقاله في السجن، وإبعاده لا عن أرضه وأهله فقط بل وعن كل حي وعن كل مظاهر الحياة، لكن من صميم التأزم تحدث المفارقة، فالهمة تشحذ، والتحدي يقلب الموازين يقول: " في هذه اللحظة بالذّات

[1] سيغموند فرويد، قلق في الحضارة، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1979، ط2، ص08.

أشعر بنفسي عملاقا، صبّار الألم الذي ينشر وخزاته الحارقة في جسدي يتحوّل في هذه اللحظة إلى مطر على شبابيك قلبي، يمسح الحيرة.. العجز الذي لاح ثمّ اختفى... أشعر بأنفاسي تتقطّع، ألتقطها بارتعاش داخل الكيس النّتن الكريه الرائحة الذي دهن بالخراء، أحاول أن أخرج من جسدي رويدًا رويدًا، أهرب من هذا الجسد الذي يمكن أن يقودني إلى الهاوية. أهرب من جسد شفيف رقيق خسر عشرين كيلو غرامًا خلال الشّهر الأوّل من التعذيب، أهرب من الخارج إلى الدّاخل.. إلى روحي.. أُشعلها زخّات من التسبيح والتّهليل والتكبير. في هذا الكيس المظلم النّتن أتنفّس ايم الله الواسع.. أظل أكرّره وأكرّره حتّى يخترق كلّ مسامات جسدي. أكرّره وأكرّره لأستجمع ذاتي على عتبات مرج أخضر واسع فتنعتق روحي وتحلّق عاليًا عاليًا."[1]

بهذا الإيمان القوي يتحدى الفلسطيني ألمه وعذاباته، ومكر جلاديه، بهذا يعيد صياغة انفعالاته وأحاسيسه في جو تغترب فيه الأفكار والمشاعر بل وحتّى الذات، فتسلب القدرة وتسلب الإرادة يقول "أبو رجا": " أشعر الاختناق.. هذه الأسوار العالية المسيّجة بأبراج المراقبة والحراسة والكلاب البوليسية وأنظمة الإنذار تشيع في الأجواء رائحة احتراق شواء الأجساد فيما العيون مازالت معلقة على الأبواب ترنو لميلاد جديد ترفرف من عل... أدخل الزّنزانة، الشمس والقمر والهواء والأشجار والسهول والجبال والوديان كلها كانت تمشي خطوة خطوة.. كلها كانت آتية معي، وافقت أن ترافقني إلى داخل الزنزانة، لم تخف من الجنون ولا من الهلوسة ولا من العزل الانفراديّ ولا من القيود التي تحز الجسد فتجعله مُدمى... أدخل الزّنزانة لأصبح مجرّد رقم.. لا يحمل من صفات البشر شيئًا، الزنزانة تصبح قبري المتحرك، الشبابيك والممرات والفتحات والقضبان والشبك والصاج كلها مغطاة بستائر التعمية لحجب الرؤية والضّوء والهواء، ووسط هذه الأجواء أشعر بثعبان كريه يلفّ أنفاسي... من تلك الزّنزانة يكبر الحلم بالتحرير والعودة، الأيّام تمر بطيئة وأنا أعاني الغثيان والقرف والرائحة

[1] نردين أبو نبعة، ربّ إنّي وضعتها أنثى، ص35-36.

الكريهة المنبعثة من الأجساد الكثيرة المحشورة في الغرفة الواحدة... ضيق هذه هي اتّساع أرواحنا واستشهادنا هو السبيل لتحرّرنا وألمنا هو السكين المغروزة في قمّة رأس الاحتلال "[1].

3- البعد الاجتماعي لصورة الوطن في الرواية:

لكل مجتمع عاداته وتقاليده التي يرتكز عليها وتميّزه عن غيره من المجتمعات، إذ تعتبر هذه العادات الثابت والموروث المتناقل من جيل إلى جيل، تُتّبع في الأفراح والأحزان والمناسبات الشخصيّة العامّة والخاصّة، ممّا يزيد من قيمة الوطن ومكانته في نفس كل مواطن، وهكذا الحال مع الفلسطيني الذي يحمل في قلبه كغيره من البشر مكانة ومنزلة عظيمة لوطنه بل يشتدّ تعلّقه بالمكان الذي وُلد وترعرع فيه، وتزيد معاناته إذا ما تعرّض مكانه للفقد والضياع أو إذا أُجبر على تركه ومغادرته.

تتجلّى مظاهر البعد الاجتماعي بوفرة في الرواية، وقد أدرجتها الكاتبة لتنقل لنا صورة المجتمع الفلسطيني بكلّ عاداته وتقاليده، إذ تظهر هذه العادات والتقاليد، والأقوال والحكم بشكل جلّي في الأعراس ومواسم القطاف للزيتون، ومن بين مظاهر البعد الاجتماعي في الرواية:

3- أ- العادات والأنساق الاجتماعية:

رصدت الكاتبة في روايتها العديد من العادات والتقاليد التي يتميّز بها المجتمع الفلسطيني، سعت من خلالهم إلى رسم صورة فنيّة لواقع المجتمع الفلسطيني ومنها:

ما ورد على لسان عباس وهو يعيد مثل أمّه: "مع ذلك ارتاحت أمّي لفكرة زواج أخي من ابنة عمّه فقد سمعتها تردّد بينها وبين نفسها (عليك بالطّريق ولو دارت وببنت العمْ ولوْ بارتْ) ثمّ تعدّل شاشتها البيضاء وترفع صوتها قليلاً وتقول لأختي عائشة (بنْت العمْ بْتُصبر على الجفا.. أمّا الغريبة بدْها تدليلْ "[2]

[1] المصدر السابق، ص 118-119.

[2] نفسه، ص75.

يرصد هذا المثال عادة من عادات المجتمع الفلسطيني، وهو الزواج من الأقارب لأنّهم يروْن فيه خيْر ومصلحة، ذلك لأنّ القريبة في نظرهم تصبر على الصّعوبات وتتحمّل مشّقاتِ زوجِها وأهْله لأنّها تعرِف عليهم كلّ صغيرة وكبيرة، على عكس الغريبة المدنيّة التي لا تصبر على زوجها ولا تعرف من أمور الفلاحة والحياة المعيشة آنذاك شيئًا.

وقوله أيضا: " وهكذا كان أهل البلد على العموم يحبون أن يتزوّج ابن العم من ابنة عمّه ولا يحبون الغريبة. وارتاحت أمّي من (الرمّ) فهي ابنة عمّنا وتعرفها جيّدا وتعرف أنّها مْعدّلة وشاطرة فلم يتم فحصها فحصًا دقيقًا. فلم تقبّلها لتشمّ رائحة فمها كعادة النساء في الزاوية عندما يخطبون بنتا غريبة. لم تعطها إبرة لتلظمها أو نقودا لتعدّها لترى قوّة بصرها ولم تعطها حبّة لوز تكسّرها ولم تفحص البيت ونظافته فكلّ هذه الأمور معروفة لدى أمّي مسبقا"[1]

تبيّن الكاتبة من خلال هذا المقطع مدى رفض الأمّ الفلسطينية أن تزوّج ابنها من غريبة، وإذا كانت العروس غريبة تقوم بفحصها فحصًا دقيقا واستخبار كلّ حواسّها ونظافتها ونظافة بيتها، وهذه صورة على كره الفلسطيني للغريب وعدم تقبّله في حياته مهما كانت صفته، وذلك بسبب الظلم والقهر الذي تعرّض له من طرف الغرباء.

يقول **عباس** وهو يسترجع عُرس أخيه "أبو رجا": " ولدا في نفس اليوم أخي أحمد (أبو رجا) صباحًا وابنة عمّي مساءً. فقالوا على الفور أحمد لبديعة "[2]

فمن عادات الفلسطينيين قديما الزواج من الأقارب بكثرة، وتزويج كل اثنين وُلدا بنفس اليوم أي أنّهما يُسميّان على بعضهما منذ يوم ولادتهما.

يبدأ عرس أبو رجا ويبدأ **عبّاس** بسرده فيقول: "عرس أخي أبو رجا استمرّ سبعة أيّام بلياليهن. أمّي أخواتي عائشة، ووجيهة وقريباتنا، بقين يغنّين ويرقصن. في الليلة التي تسبق

[1] المصدر السابق، ص76.

[2] نفسه، ص74.

العرس وهي ليلة الحنّاء غنّينا ورقصنا كثيرًا. اشترت أمّي بعضًا من الحنّاء والبعض الآخر لقطت أوراقه من شجرة الحنّاء القريبة من دارنا، ثمّ جفّفت الأوراق وطحنتها ثمّ جبلتها هي وأختي عائشة. وضعوا الحنّة في أكياس صغيرة وصفّوها على صواني كبيرة مزينة بالورود ووضعت أمّي الصينيّة على رأسها وطوال الطريق وهي تغنّي وما أن وصلت إلى بيت أهل العروس حتّى بدأت في النقش. كانت بارعة وكأنّها رسامة، كنت أرقبها من بعيد وهي تنقش الحنّاء على كفيّ العروس وقدميها وساقيها، ترسم نقوشًا جميلة وجذّابة استعارتها من الطبيعة (أشجار وأزهار) تحنّي وتغنّي... خرجت لألحق بسحجة الشباب والرجال في الخارج. كانوا يقفون صفين متوازيين صف يبدع والآخر يرد، يهزون أكتافهم برزانة وبحركات متوائمة مع نغمة الغناء، ثمّ يحْنون قاماتهم إلى الأمام يصفقون مرّتين، أمّا الأقدام فكانت تدّك الأرض دكًا بصوت عال.... أمّا الختيارية وكبار السنّ فيدبكون دبكة خاصّة تسمى السّبعاويّة أو الطيّارة. لا يبذلون فيها جهدًا جسديًا ويختارون السبعاويّة لأنّ إيقاعاتها تتميّز بالهدوء والرّزانة وعدم كثرة الحركة... عند فجر يوم العرس بدأت نساء البلد بالتّوافد على أمّي ليساعدنها في الطّبخ للعرس... عند الظهر أخذوا أخي أحمد ليتحمّم حمّام العريس. أخذوه إلى دار خالي صابر كعادة أهل البلد فالعريس يتحمّم في دار أحد أقربائه أو أصدقائه... ركب أخي أحمد فرسًا جميل عليه كثير من الزينة والدّنانيش وحمل شمْسية مزيّنة بالورود الكثيرة... ذهبنا بعدها لإحضار العروس من بيت عمّي وكانت العروس تلبس ثوبًا جميلاً جدًّا لم أر مثله في حياتي. لقد كان مطرزًا تطريزًا كثيفًا من الأمام والخلف وعلى الأكمام. لقد كان لوحة فنيّة. كان الثوب أسود عليه ألوان مزركشة قرمزيّ، أصفر، ووضعت على رأسها شالاً طويلاً والكثير من قروش الفضّة بشكل دائري على أطراف الرأس... "[1]

تصّور الكاتبة هنا طريقة الأعراس الفلسطينية وتقاليدها، كيف يستمرّ العرس لسبعة أيّام وليالي يفْرحُ فيه كلّ أهل الزاوية، نسائها ورجالها، أطفالها وحتّى كبار السّن، تصف كيف تُنْقش الحنّاء على العروس بكل براعة وجمال، تصف ثوب العروس كيف يكون ملوّنًا

[1] المصدر السابق، ص76-80.

مزركشًا مع الكثير من مجوهرات وقروش الفضّة، وكيف يُهتمّ بالعريس الذي من عادتهم أن يتحمّم في أحد منازل أقربائه أو أصدقائه فيتجهّز أحسن تجهيزًا، وكيف كانت نساء البلدة ورجالها يساعدون في قيام هذا العُرس، كلّ هذه عادات يقوم بها كل فلسطيني ويعتبرها أساسًا لقيام أعراسه، يتذكّرها "عبّاس" متأسفا على كل فلسطيني يعيش في المنفى مغتربًا عن وطنه فلا يعرف من تقاليده ولا عاداته – التي تكاد تأخذ عنده سمة القداسة– شيء فيقول: " أشعر بتأنيب الضّمير لأنّ أطفالنا الذين ولدوا في المنفى بلا ذكريات بلا أهل أو أقارب..."[1]

ومن بين العادات التي ذكرتها الكاتبة في الرواية موسم القطاف للزيتون الذي يُعرف به الفلسطينيون ويعتبرونه شيئا مقدّسا يقول في هذا عبّاس: " فلشجر الزّيتون في تشرين حكايا فكلّ حبّة تقع في حجر أمّي لها صوت رجوع الأحبة إلى الديّار... أمّي.. أختي عائشة، أختي وجيهة، أخي أبو رجا، أولادهم، أزواجهم حتّى الأطفال في القماط، يوضعون في المهد، تضع الأمّ المهد فوق رأسها وتذهب للحصاد، فالزيتونة تنتظر لترتمي فوق صدور العاشقين. لا يبقى في القرية سوى الشّيوخ والعجائز والطّلبة... تجتمع النسوة عند القطاف يستعدن ذكريات مضت. تتبلل الحكايا لتكون مزيجًا عن عودة الغُيّاب... كانت أمّي وعندما تسقط منّي حبّة زيتون فلا ألقي لها بالاً تقول بصوت يشبه نواح الريح:

– انقلعت عِيْنا وإحْنا بِنْدوّر على حبّة الزّيتون وبالآخر بْتيجي بْترْميها.

القطاف للزيتونة كليلة العرس للعروس، يجعلها زاهيّة راقصة بين أصابع الفلاّح الذي يتفنّن في التعامل مع الشجرة وكيفية تسلّقها... لملمة حبّات الزّيتون عن البساط تشبه الثرثرة بين الحبيب والحبيبة... أمّي كان لها سّلة ذات ألوان زاهيّة يختلط فيها الأحمر بالأخضر بالأسود بالأبيض في تناغم عجيب. صنعتها خصيصًا لموسم القطاف... كانت تغزل السلّة من أغصان رفيعة وطويلة من الزيتون أو بعض الأشجار البرّية الحرجية مثل البلوط والسريس. كان لها سلّتان بحجمين مختلفين واحدة بمقبض هلالي والأخرى نصف دائري

[1] المصدر السابق، ص80.

بحيث يمكن إمساكها أو تعليقها في اليد أو في الذراع أثناء عمليّة القطاف. في آخر النهار عندما ينتهي الفلاّح من تمشيط جدائل الزّيتونة تهبّ نسمات باردة وتنوح السّماء على عري الشجرة من الثمار فيسقط المطر وتنبعث من التراب تلك الرائحة الآتية من قاع الأرض، رائحة ليس لها شبه لا تشبه حتى فلق الصبح ولا شهقة ضوء الشمس عنما تقبّل خدّ الأرض القبلة الأولى."[1]

تُعرف فلسطين بكثرة أشجار الزيتون، ويعرفُ موسم القطاف للزيتون في فلسطين أجواء رائعة ذكرها كلّها "عبّاس" في هذا المقطع، ليحي من خلالها رائحة الأرض، ورائحة الوطن، لتغدو الزيتونة مرموزا للأرض لذلك كان غصنها أعلى وزيتها أغلى. يقول: " لقد ظننتُ أنني أستعيد ذات الأجواء.. ذات الرائحة.. لكنّني ومع كلّ المحاولات لصنع أجواء متشابهة شعرتُ باليتم، فكلّ حبّة زيتون تقع في حجري أقارنها فورًا بتلك الحبّة التي وقعت في حجر أمّي ذات حصاد، كلّ رغيف خبز آكله يذكّرني بخبز الطّابون الذي تخبزه أمّي. كلّ كأس شاي أشربه يذّكرني بكأس الشاي الذي تغليه أمّي، كلّ شيء هنا يشعرني أنّي في غربة.. أقف بعيدًا عن أصدقائي. أنظر إليهم.. وأشعر بأن كل م احولي منزوع الدّسم.. بلا طعم وان اكتمل الشبه."[2]

يقول **سعيد يقطين:** " فالنص بنية دلالية تنتجها ذات فردية أو اجتماعية ضمن بنية نصيّة منتجة وفي إطار بنيات ثقافية واجتماعية "[3] وهذا ما عملت به الكاتبة **أبو نبعة** حيث اعتمدت على الشخصيات التي لعبت دورًا كبيرًا وفعالاً في تجسيد وتشخيص الواقع الفلسطيني، بذكرياتها وآمالها وطموحاتها، فالبعد الاجتماعي لصورة الوطن في الرواية يجعل من ذلك الوطن مرجعًا أساسيًا لشخصيات الرواية لأنّه يعني لهم الأصل والجذر ومسقط الرأس، وكل ما يؤثث ويؤسس للانتماء.

---

[1] المصدر السابق، 63-66.

[2] نفسه، ص66.

[3] سعيد يقطين، انفتاح النصّ الروائي "النص والسياق"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، ص32.

4- البعد الديني لصورة الوطن في الرواية:

يعتبر الدين عاملاً هامًا وأساسيًا في المجتمعات العربية، كونه يمثّل أحد أهمّ مكونات شخصية الإنسان وتفكيره وتعامله مع نفسه ومع الآخرين، كما أنّه يؤثر في الحياة بكلّ جوانبها السياسية والاجتماعية، وقد ارتبط الدين بالأدب والفن الروائي وأصبح منهلاً ينهل منه الكتاب والأدباء ليغذو ويثروا أعمالهم، فالقص القرآني، وبعض قصص الصحابة يتغلغلان في بناء ثقافة المجتمع العربي وخاصة المجتمع الفلسطيني، وبالرغم من جهود المحتل في محاولة سلب هويّته وشجب ديانته إلاّ أن الفلسطيني المسلم أبى إلا أن يظل الدين الإسلامي عقيدته التي يموت دونها.

وجل الروايات الفلسطينية تركّز على إثبات الهويّة العربية الإسلامية للمجتمع الفلسطيني، وما تجليه الرواية المدروسة من بعد ديني نقف عليه من استقراء الشواهد الآتية:

العنوان: ربّ إنّي وضعتها أنثى

يمثّل العنوان العتبة الأولى للنص، إنّه البوابة الأولى التي يلج من خلالها القارئ إلى عالم النص لكشف خباياه والموجه من أفكاره " كما يمثل واجهة إعلامية تأخذ شكل (الجملة المفتاح) تمارس على القارئ سلطة أدبية وفكرية فهو يمثّل تلك العتبة النصية التي يعمل القارئ على افتكاك بنيتها اللغوية والدلالية باعتبارها الجملة المفتاح للنص."[1]

يقول **محمد مفتاح** في العنوان: " أول مفتاح إجرائي تفتح به مغالق النص كونه علامة سيميوطيقية تضمن لنا تفكيك النص وضبط انسجامه فهو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد إنتاج نفسه"[2].

[1] نور الدين صدّوق، البداية في النص الروائي، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 1994، ص36.

[2] محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987، ص72.

فالعنوان يحمل العديد من الإيحاءات والإشارات لابدّ على الباحث كشف دلالاتها بمساءلتها، ولعلّ القارئ عندما يقف على عنوان هذه الرواية " **ربّ إنّي وضعتها أنثى** " يحيله مباشرة على النص الذي أوردته الآية الكريمة في قوله سبحانه وتعالى:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ سورة آل عمران، الآية: 36

يذهب معظم العلماء إلى تفسير واحد لهذه الآية يصفون فيه شعور امرأة عمران عندما ولدت النذيرة أنثى، فامرأة عمران امرأة صالحة تنتمي إلى قوم اصطفاهم الله للعبادة والدين، نذرت ما في بطنها ذكرًا حتى يكون في خدمة الله وشعائر الدين الإسلامي، فلمّا وضعتها أنثى ناجت ربّها وقالت ربّ إنّي وضعتها أنثى وليس الذكر كالأنثى والله أعلم بما وضعت.

أرادت امرأة عمران أن تضع مولودها ذكرًا ينخلع من شهوات الدنيا، ويتفرغ للعبادة وخدمة المسجد وتولّي شؤونه، لأنها ترى بأن الأنثى لا تصلح لخدمة المسجد ودخوله لما يعتريها من الأذى والحيض والنفاس، والذكر أقوى على الخدمة وأولى بها، لكن الله سبحانه وتعالى أرادها أنثى لأمر أعلى ممّا أرادت هي، أراد أن تكون هذه الأنثى آية للعالمين، فوضعتها أنثى وسمّتها مريم، وكانت كما أرادها ربها آية للناس أجمعين.

نفس الأمر أرادت الروائية **نردين أبو نبعة** أن توضحه من خلال روايتها وهو تغيير صورة المرأة التي تكاد تنعدم في المجتمعات العربية، الأنثى التي سيطر عليها الذكر، وقضت العادات وقفها على مهام معينة دون غيرها، أرادتها أن تجلي حكمة جعل المنذور (منذور زوجة عمران) أنثى تصنع الفارق لا ذكر تقول الكاتبة: "وضع المرأة في غزّة غريب جدّا، المرأة هنا هي التي صنعت الفرق وأطلقت شارة البدء والتغيير... غزة حملت أشهرًا وسنين طويلة وكانت تدعو الله أن ترزق بذكر لأن الذكر ليس كالأنثى، ولكن بعد طول حملها وشدته.. وضعتها أنثى.. تألمت وظنت أن الله لم يستجب لدعائها وناجت ربها { رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى} ولكن دعائها كان مخبأ في أكمام

العطر... حينها عرفت رسالة ربّها إليها وأن رحمها هو الذي حضن الأنبياء وهو الذي سيدفع بالشهداء، إنها الأنثى القادرة على التغيير والتجديد وليس الذكر وحده القادر على صنع النصر"[1]

هكذا تخالف الرواية ما وقر عليه وضع المرأة في المجتمعات العربية لتغدو عمادها.

وعن شأن التناصات مع آي القرآن الكريم فالرواية مثقلة وعامرة بذلك من مثل قولها: " قلت له أنا من الزاوية بفلسطين، حضنني وهو يضحك مرحبًا مردّدا:

سبحان من دحاها "[2]

يحيلنا قوله سبحان من دحاها إلى الآية الكريمة في قوله **عز وجل:**

﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١﴾ سورة النازعات، الآية: 30-31

توصّل معظم علماء تفسير القرءان إلى أن المقصود بالأرض بعد ذلك دحاها أي بسطها ومهدها بحيث تصبح صالحة للزرع والحياة بصفة عامة، ووظفتها الكاتبة دلالة على أرض فلسطين المعروفة بلذة ثمارها وكثرتها واختلافها من صبّار وزيتون وبرتقال... الخ، وهي الأرض التي بسطها الله فأصبحت أرضا صالحة للزرع، حيث يصفها البطل **عباس** في غربته لزملائه هناك "أرسم لهم فلسطين الزّيت والزّعتر، فلسطين العدس والبُرغل، فلسطين التّين والزيتون والإسراء والأقصى.. الشيح.. والميرمية.. والعكوب واللوف والزعمطوط والخبيزة "[3]

يظهر التداخل الديني مرة أخرى في الرواية في قول الكاتبة على لسان شخصيتها **عباس:** " يأتيني طيفك الآن وفي هذه اللحظة بالذّات لحظة إعلان وصول الطائرة من

[1] نردين أبو نبعة، ربّ إنّي وضعتها أنثى، ص60-61.
[2] نفسه، ص22.
[3] نفسه، ص94.

البرازيل. أراك وقد وهن العظم منك واشتعل الرأس شيبًا.. قد زاد جمالك. لم تكوني جميلة وأنت صغيرة أتراها الأمومة المحاطة بالدعوات... تلقي عليك مزيدًا من النور والطمأنينة "[1]

يصف عباس أمّه وهي تتقدم في السن وتزدادُ نظارة فيقول أراك وقد وهن العظم منك واشتعل الرأس شيبًا آخذًا قوله هذا من الآية الكريمة في قوله عزّ وجلّ: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا} سورة مريم، الآية:4

يناجي زكريا عليه الصّلاة والسلام ربّه في هذه الآية الكريمة فيقول: ربّ إنّي قد وهن العظم منّي أي ضعُف بدني وتقدّمت سنّا، واشتعل الرأس شيبًا دلالة على الضعف والكبر والتعب، وهذا ما أراد عباس أن يقوله عن أمّه بأنها ضعفت وتعبت من ظلم العدوّ الصهيوني الذي حرمها من أبنائها وأسرتها.

ترجِع الروائية مرّة أخرى إلى القرءان الكريم لتعبّر عمّا تريد وتصف الحالة المراد وصفها فتقول على لسان شخصيتها **أبو رجا:** " أنتظر تركيب طقم الأسنان منذ ما يزيد على الثلاثة أشهر في هذه الأثناء أفقد عشرة كيلو أخرى من وزني.. تنغرس الأشواك في رأسي فأتكئ على رائعة أبي، { ربّ قد مسّني الضرُّ وأنْت أرْحمُ الرّاحِمين } "[2]

تحيلنا هذه الآية على مناجاة سيّدنا **أيوب** عليه الصلاة والسلام لربّه حينما حلّ به المرض في قوله تعالى: { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } سورة الأنبياء، الآية: 83.

امتحن الله سبحانه وتعالى **أيّوب** عليه الصلاة والسلام بكثير من الأمور، وعندما آذاه المرض وتعب من حاله نادى ربّه وقال ربّي قد مسّني الضّرُّ وأنت أرحم الراحمين، كذلك فعل **أبو رجا** عندما تعِبَ من حاله ومن ظلم العدّو، وتعذيبه بأبشع الطرق في السجن حيث خسر نصف وزنه وفقد كلّ أسنانه فلا يجد خيرا ولا أفيد من تلك الآية الكريمة.

[1] المصدر السابق، ص28.

[2] نفسه، ص163.

وإلى جانب الآيات القرآنية التي أخذتها الكاتبة من القرءان الكريم أشارت كذلك إلى مجموعة من الشخصيات الواقعية ذات المرجع الديني كالأنبياء والصحابة ممّا يبيّن ثقافة المجتمع الفلسطيني، ومن الأنبياء التي اختارتهم الكاتبة في توظيفها سيّدنا **آدم** عليه الصلاة والسلام حيث صوّرته من خلال خبايا النفس التي فرضت عليه ليلقى فيه ثقل الخطأ الإنساني الأول الذي مسّ بالبشرية ككلّ عندما عصى أمر ربّه، فتقول: "يا ترى ما هو شعور آدم عندما هبط على الأرض لأوّل مرة؟ أيشبه شعوري الآن؟ تيْه فراشة لا تجد نارها.. احتراق الصّوت ورماده؟ أنين ملهوف؟ وتر ممّزق؟ مفتاح ضائع؟ كلّ هذا شعوري لحظة هبوطي على هذه الأرض "[1]

شعر **آدم** لحظة هبوطه على الأرض بعد ارتكابه الخطيئة بخيبة أمل كبيرة، فأحسّ باغتراب نفسه أوّلاً واغترابٍ للمكان الذي كان فيه وهي جنّات النعيم، نفس الشعور أحسّه **عبّاس** عندما نُفي من وطنه إلى بلاد أخرى حيث كان تائهًا وسط مرارة الغربة وقساوتها.

وتقول الروائية في موضع آخر: " أفرّ من اليهود.. إلى الوحشة والظّلمة. أراود إخوة يوسف.. حلمي الجائع.. أصحو على وخز دبّوس صدئ "[2]

تشبّه الكاتبة مكر العدوّ الصهيوني وظلمه بمكر إخوة سيدّنا **يوسف** عليه الصلاة والسلام، فما فعلوه بأخيهم الصغير يفعله الصهاينة بأطفال غزّة ورجالها ونسائها عامّة.

كما نجد الروائية توظف بعض الأمكنة المقدّسة فتقول: " كثيرًا ما كان يتحدّث عن كعك القدس: رائحته، طريقة عمله... كعك القدس مجبول بماء القدس مرت عليه نسمات هوائها، وخيوط شمسها، وتكبيرة مسجدها الأقصى، ولذلك تظفر بطعمه أبدًا، إذا لم تكن في القدس"[3]

[1] المصدر السابق، ص18.

[2] نفسه، ص15.

[3] نفسه، ص96-97.

أكثرت الكاتبة من توظيف القدس لاعتباره من أهمّ الأمكنة المقدّسة حيث يحمل بعدًا دينيًا يدلّ على حضارة المجتمع الفلسطيني الإسلامية وارتباطه بالدّين الإسلامي الحنيف.

تسعى الروائية **نردين أبو نبعة** من خلال روايتها هذه إلى إثبات الهويّة العربية والدين الإسلامي الذي يتوّج المجتمع الفلسطيني، حيث تظهر الرموز الدينية تقريبا في كلّ الرواية من آيات للقرآن الكريم وقصص للأنبياء، وتوظيف للعديد من الأماكن المقدّسة، فالكاتبة تعود إلى ظروف خاصّة إلى ثقافتها الدينية التي تعتبر حقّا من حقوق الفلسطيني، وعليه نقول أنّ هذا التوظيف للآيات القرآنية والشخصيات الدينية يمثّل البعد الديني للمجتمع الفلسطيني وكلّ المجتمعات العربية بصفة عامّة، حيث تستمدّ قيمها وأخلاقها ومبادئها منه.

هكذا يحمل الوطن في رواية "**ربّ إنّي وضعتها أنثى**" أبعادًا مختلفة تحيلنا على الوضع السياسي والاجتماعي، والديني للمجتمع الفلسطيني.

الفصل الثاني

الدلالات الرمزية لصورة الوطن في رواية "ربّ إني وضعتها أنثى" لنردين أبو نبعة

يكتسب الوطن دلالات كثيرة وواسعة باعتباره المحلّ الذي يهتم به الإنسان ويتعلق به، فهو لم يكن المكان والمناخ والمنزل، كما لم يكن مفهوما تاريخيا وجغرافيا فقط، بل كان أيضا مفهوما رمزيا يحمل عدة دلالات وإشارات رمزية مختلفة المعاني.

فقد رسمت الكاتبة "**تردين أبو نبعة**" في روايتها صورا ورموزا عديدة للوطن، وجعلتها قالبا يصبّ فيه كل معاني الصبر، التحدّي، الجهاد والمقاومة، ومن بين هذه الدلالات الرمزية والصور المتعددة للوطن:

1- صورة الوطن الأمّ

اكتسبت المرأة العربية وخاصة الفلسطينية مكانة عالية في الكثير من إبداعات الشعراء والروائيين على اختلاف اتجاهاتهم، وتعدّد اهتماماتهم، كونها عماد المجتمع، والوتر الذي يتأثر بحركة الواقع ويؤثر فيه.

واحتلت المرأة الأم بالتحديد مكانة خاصة في كل الأديان ففي ديننا الإسلامي الحنيف، أوصى بها خيرا، يقول تعالى في محكم تنزيله:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ سورة الأحقاف، الآية: 15.

وقال الرسول صلّى الله عليه وسلم (الجنّة تحت أقدام الأمّهات)[1] رواه ابن عدّي

وكان للمرأة الأم تأثيرا عاليا في نفوس الشعراء والروائيين فأبدعوا في تصويرها وتوظيفها، وركزوا على تفانيها ومعاناتها؛ فمثلا في الثمانينات عرضت **فدوى طوقان** في سيرتها الذاتية القمع والظلم الذي تتعرض له المرأة الفلسطينية في ظلّ الجهل والفقر، وعدم الوعي

[1] أبو أحمد ابن عدي الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص123.

بمتطلبات الواقع وما تفرضه العادات والتقاليد، فتقول: "الجو العائلي يسيطر عليه الرجل كما في كل بيت، وعلى المرأة أن تنسى وجود لفظة "لا"، أما نعم فهي اللفظة الببغاويّة التي تلقنها منذ الرضاعة، وحق التعبير عن النفس محظور عليها، الضحك والغناء من المحرمات، والاستقلال الشخصي مفهوم غائب لا حضور له إطلاقا.."[1]

عكست **فدوى طوقان** صور المجتمع في فترة الثمانينات، وبيّنت فكره وطريقة تعامله مع المرأة، حيث كان الرجل يسيطر ويهيمن على الحيّز المكاني والزماني، والمرأة تكاد تختفي وتنعدم من وجودها، لكن الصورة اختلفت وأصبحت المرأة أكثر وعيا لذاتها، وأكثر إدراكا بمسؤولياتها، وتحرّرت من القيود والعادات والتقاليد التي كانت تُمارس في حقّها ولو نسبيا، وهذا ما صوّرته الروائية **نردين أبو نبعة** في الرواية المدروسة، والذي سنقوم بتوضيحه فيما بعد.

كذلك رواية "الأمّ" **لمكسيم غوركي** التي تركت بصمتها في التاريخ الروسي وكان لها صدا عاليا، حيث كانت الأم فيها تعتبر رمزا للثورة والفداء بالنفس من أجل وطنها وأبنائها "فلمّا قبض على ابنها " بولس" ونفي، قامت بدوره في الاجتماعات السريّة، ونفّذت المهمات التي يقوم بها، غير أن الشرطة كانت تراقبها فقبضت عليها ليلة، وأهانتها واضطهدتها، وداستها أقدام رجالها، وكان إذلالها وما أصابها من عذاب منطلقا لتصبح من بعد رمزا للفكرة الثورية"[2]

تجاوز **مكسيم غوركي** كذلك صورة المرأة المهانة التي تسيطر عليها العادات والتقاليد، المرأة المقهورة، المتلقية، الخاضعة للهيمنة الذكورية، وألبسها ثوبا جديد، ثوب المقاومة والدفاع عن النفس، فكان له في روايته الواقعية هذه "الأمّ" نظرة أخرى للمرأة يسعى لنشرها في تلك الفترة، لكي يغير من صورتها نحو الأفضل.

---

[1] فدوى طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة (سيرة ذاتية)، دار الشروق، رام الله، 1990، ص46.

[2] محمد حمود، الأدب الروسي، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2008، ص83.

أمّا رواية "أم سعد" **لغسان كنفاني** "فهي الجواب الذي كلّف غسان كنفاني كل إنتاجه الأدبي، وهي جواب لمسار مليء بالشوك منذ أن بدأت معاناة الشعب الفلسطيني الأولى، إنها التجسيد الواعي الكامل لموضوعه المناضل الثوري بكل دوافعها، وهي تعبير عن التطور الجدلي للمرحلة الثانية من تاريخ الثورة الاجتماعية، الرواية الجمعية التي عبرت عن الإنسان الفلسطيني الجديد"[1]

إذ تعدّ شخصية "أم سعد" في رواية **كنفاني** المعنونة باسمها من أبرز الشخصيات النسائية، وأكثرها تعبيرا عن الدور النضالي للأمّ الفلسطينية، التي عاشت ذلك الزمن المليء بالأوجاع والأحزان وعانت من القهر والظلم الذي كان يمارس في حقها، إلا أن هذا لم يمنعها من تقديم المساعدة فداءً للوطن، وحمل كل أعباء أسرتها وأبنائها.

الأمر نفسه تطرّق له **غسّان كنفاني** في روايته "ما تبقّى لكم"، حيث حمّل شخصية (مريم) رمز الواقع الفلسطيني الذي لوّثه الصهاينة والخونة بالعار.

ونفس المسار اختاره **نجيب محفوظ** في روايته المصرية الواقعية "بداية ونهاية"، وحمّل المرأة الأم نفس الرمز، حيث وصف دورها في النضال والمقاومة وذلك على لسان إحدى شخصياته، "فشخصية حسين أكثر أبناء الأسرة إيمانا، وأثبتهم قلبا واتزانا، يقارن بينها وبين شيئين:

الأول: أن هذه الأم في كفاحها البطولي من أجل الأسرة تبدو نموذجا وحدها بين النساء.

الثاني: أنها رغم الأزمات تبدو متماسكة، لذا شبهها بالأرض الصابرة الخيرة.

فصورة الأم هنا أيضا ترقى إلى أن تكون رمزا للعناصر الأصيلة المستمرة في شخصية مصر، ولا يطمسها مستعمر، ولا ظلم حاكم رجعي"[2].

---

[1] أفنان القاسم، "غسان كنفاني، البنية الروائية لمسار الشعب الفلسطيني من البطل المنفي إلى البطل الثوري"، أطروحة دكتوراه، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، دط، 1978، ص70-71.

[2] طه وادي، صورة المرأة في الرواية المعاصرة، دار المعارف، 1998، ط4، ص247.

أمّا **نجيب محفوظ** في تصويره للأم في روايته "بداية ونهاية" كان أقرب للواقعية التي تعكس معاناة الطبقة الكادحة في مصر آنذاك، ومن هذه الطبقة تلك الأم التي تعاني من الظلم والقهر في مجتمعها.

كذلك **محمود درويش** الذي اهتم بجنس الأنثى، وكان للأنثى الأم صدى كبير في أعماله وقصائده، فصورها على أنها مثالا للحنان المتدفق، وخيرها الذي تنشره بين أسرتها وأبنائها، ودورها في النضال والكفاح من أجل الوطن.

تحلّق **نردين أبو نبعة** في روايتها "ربّ إني وضعتها أنثى" بلفظة الوطن، وتحمّلها دلالات وإشارات رمزية عديدة، فالوطن كما عرفناه هو المحلّ، ومكان الإنسان من الإقامة والسكن والأمان والاستقرار، وما كان ليحمل هذه الرمزية إلا الأم بحنو حضنها ومسؤولياتها اتجاه أسرتها وأهلها، وخصوصا الأم الفلسطينية التي نشأت في ظروف استثنائية حتّمت عليها تجاوز القيود والعادات والتقاليد التي تفرض عليها، حيث تطور فيها مفهوم المرأة وتغيرت الصورة السلبية التي كانت تحملها، تلك الصورة النمطية، المستهلكة، المنكسرة، فجاءت صورة المرأة في رواية **نردين أبو نبعة** قريبة من صورة الرجل، إذ تقوم بمهامه وتسانده في الوقت نفسه، فهذا التحول والتغير، والتطور في شخصية المرأة الفلسطينية بشكل خاص انعكاس لحركة الواقع آنذاك، وهذا ما توضحه الروائية في قولها: "... وضع المرأة في غزة غريب جدا! المرأة هنا هي التي صنعت الفرق وأطلقت شارة البدء والتغيير... عرفت رسالة ربها إليها وأن رحمها هو الذي حضن الأنبياء وهو الذي سيدفع بالشهداء! إنها الأنثى القادرة على التغيير والتجديد، وليس الذكر وحده القادر على صنع النصر..."[1]

وقالت في موضع آخر: "... والأم هنا ليست ككل الأمهات، فهي التي دفعت بأولادها إلى الجهاد... تذكرهم بأن المقاومة لا بدّ أن تنتقل من الحجر إلى السكين، ومن السكين إلى

[1] نردين أبو نبعة، ربّ إني وضعتها أنثى، ص60-61.

البندقية، ومن البندقية إلى الصاروخ والطائرة الحربية؟ شيء عجيب وغريب وكأنها استبدلت قلبها الذي سكن في الجهة اليسرى بحجر!

أعترض وأقول:

أعتقد أنها استبدلت قلبها الذي في الجهة اليسرى بوطن يشبه الخنجر..."[1]

كانت الأنثى في الرواية تحضر بشكل مغاير ومختلف عما هو عند الشعراء والأدباء السابقين لها، الذين تناولوا المرأة على أساس أنها أنثى تتجلى فيها صورة العاشقة الرقيقة الناعمة ذات المواصفات والجمال، غير أن **نردين** وظفتها رمزا قيّما للتعبير عن الوطن، حيث أخرجتها من بعدها الجسدي إلى بُعدٍ روحي، وجعلتها الرمز المقدّس الذي هو الوطن، وكان الحب أسمى أنواع العشق والحب الذي ربطت فيه بين المرأة باعتبارها الأرض والوطن والمقاومة والحرية، والحنان والعفة.

الكاتبة تعطي المرأة الأم صورة رائعة، صورة تعكس عطاءها اللامحدود، ومكانتها التي أصبحت وبالتقريب تتساوى مع الرجل، نظرا لدفاعها وفدائها وتفكيرها من أجل صدّ العدوّ، فتقول: "كم صعبة وموجعة الولادة! أيّة ولادة ... ولادة الأنثى... ولادة الأفكار... ليس خيارا ما فعلته المرأة الفلسطينية، إنها تزف قطعة من قلبها وروحها للحرية... الحرية هنا لها طعم مختلف... وهبتك الله، هي كلمة المرأة التي تقاوم بها ضعف الأمومة المرهف..."[2]

يذهب **عبد الحفيظ بن جلولي** إلى أن "صورة المرأة أكثر رهافة وحساسية، وأشد وضوحا في تعبيرها عن الواقع من صورة الرجل... كذلك نجد المرأة قادرة أن تستقطب بحساسيتها المتأنية واتزانها العاطفي مُثُل مجتمعها، وتقاليده بجميع عناصرها، استقطابا يبلغ حدّ الثبات والتكرار"[3]

---

[1] المصدر السابق، ص61.

[2] نفسه، ص61.

[3] عبد الحفيظ بن جلولي، الهامش والصدى –قراءة في تجربة مفلاح الروائية–، دار المعارف، الجزائر، دط، 2008م، ص50-51.

تؤكد بالمقابل **نردين أبو نبعة** عمق وعي المرأة بقضيتها، قضية وطنها، وجودها وكينونتها الفلسطينية، لذلك تمثلت روح الثورة والمقاومة، وتجاوزت عن كل خطايا من حولها يقول **عباس** "... أمي كانت قوية لدرجة أنها أغرت الأقارب بأن تكون شراعه على ضعفها ورقتها، قوية لدرجة أنها قادتنا إلى المرفأ وبكل أمان، حمتنا من الغرق، من التيه وحتى من الحزن... كانت لا تشكو البتّة، ولعلها أدركت وهي الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب... كانت لاتكفّ عن تعليمنا مهارة حسابية... لقد علمتنا كيف نعدّ النعم التي أنعمها الله علينا... أتذكرك وأنت تصنعين الطابون، فقد كنت أمهر نساء البلد في صنعه..."[1]

ويقول أيضا: "... كنت لا تتركين الأرض فارغة، تزرعينها كل شيء في وقته... لم نكن نشعر بالجوع معك أبدا، كنت تتدبرين أمرك لا أعرف كيف... وعندما نأكل على مائدة دسمة ونكون قد ذبحنا... تنتظرين حتى نأكل جميعا وتتأكدين أن الكل شبع فتأكلين ما تبقى، أتذكرك ولم تكوني تملكين من النقود شيئا وعندما تأخذين عيديتك من أخيك صابر... كنت تسرعين وتعطينني إياها"[2]

عندما يتحول الوطن إلى أم، وتصير الأم وطنا بأكمله يجد المناضل نفسه وضالته، فيعرف أن من دون أمه/ الوطن لا يستطيع أن يعيش، وقد أصبحت الماء والهواء والحياة، وكل ما يحتاجه المنفي في غربته، وهذا ما أحسّه "عباس في غربته وما كان يحتاجه فقد كان يشتاق لأمه كثيرا "... يد أمي السمراء ... تطاردني (بقجة) أمي العتيقة وهي تحملها على رأسها... في هذا العزل أكتشف كم أحب أمي... كم أشتاق لشاشتها البيضاء وهي تمسح دموعها وترتعش بالدعاء... تجفف عرقها المتصبب مع حبّات الزيتون في يوم الحصاد... أجلس بجانبها تحت الزيتونة لأقرأ لها رسائل الغياب... تأسرني بصبرها وحنانها وهي تأخذ المكتوب وتعيده برفق إلى بيته... في هذا العزل أكتشف كم أشفق على دمعها حين سال وهي تراني معصوب العينين... عندما جاء بي الجنود... اخترقت الصفوف

[1] نردين أبو نبعة، ربّ إنّي وضعتها أنثى، ص26-27.

[2] نفسه، ص27-28.

وتمردت على الجنود... لحضتها كم تمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني ولا أرى دمعك أمي."[1]

يشتاق **عباس** لحضن أمّه وحنانها، ويتمنى العودة لتلك الأيام التي قضاها بجنبها، ويرى أنه من خلالها يستطيع أن يشعر بوطنه ويشمّ ريحه من ريحها، فصارت أشرف أمنية يسعى للوصول إلى تحقيقها.

تصير الأم ها هنا رمز الحب المفقود، والملاذ الذي يلوذ إليه من الغربة والحرمان، ففي استحضار صورتها خلاص من الشعور بالوحدة والغياب والضياع، كما أن الأم في نظرها تمثل ذلك الوطن المسلوب الجريح، حيث كانت تعاني من الظلم والقهر من طرف العدو، وفلسطين هي أم تعودت أن تودع كل يوم قافلة من خيرة أبنائها، فالبعد صار شر لابد منه، وأبناؤها عودتهم التضحية بأنفسهم وروحهم فداءً لهذا الوطن، وقد عالجت الروائية هذه القضية من خلال عدّة شخصيات من بينها: شخصية " أم حين سلامة " تلك الأم الحنونة الصامدة في وجه العدوّ، التي كانت تساند ابنها وتقف معه في كل عملية كان يقوم بها ضدّ المستعمر الصهيوني، بل وتفرح لكل ما يقوم به، تصغي الكاتبة لحكايات هذه الأم الحنون وترى فيها ذلك الوطن الذي يحمي أبناؤه من أي خطر، فتقول: "... هذي ياحبيباتي زغرودة زغردتها يوم زُرت حسن في السجن، ولمّا زغردت كل المساجين كبّروا واليهود شردوا من الخوف... يومها قال لي الضابط:

أنت هون أخطر من حسن..."[2]

وعندما كان ابنها حسن يغيب عن البيت لمدّة طويلة للقيام بعمليات ضد المستعمر الصهيوني والثأر منه، كانت تتصرف وكأنه معها حتى لا يعرف أحد أنّه غائب ويكشف

[1] المصدر السابق، ص47-48.

[2] نفسه، ص181.

أمره، فتقول: "... شيلو لحسن صحن طبيخ، وترفع صوتها حتى يسمع كل الجيران، لأنها لا تريد أن يعرف أحد أنه خارج البيت خاصة العملاء..."[1]

ومن هنا جعلت الكاتبة المرأة بديلا عن الوطن، وحاملة روح المقاومة والفداء من أجل الوطن، وهذا ما قاله عنها "**التهامي الهاني**": "المرأة هي الوطن والحرية والديمقراطية... هي السياسة..."[2]

فقد كان الروائي العربي ولا سيما الفلسطيني على وعي بمدى ارتباط المرأة بالمجتمع وبالقضية الوطنية، وذلك من خلال مشاركتها في الثورات والانتفاضات، حيث كانت تقدم كل ما عندها لشراء السلاح وتزويد المجاهدين بالقوت من الطعام والشراب، والمساعدة في إخفائهم ونقل أخبارهم بين بعضهم، بل هناك حتى من انضمّت إلى صفوف الجيش لتمارس كل أشكال النضال، وتساهم في صياغة مستقبل الوطن، فأصبحت تشكل خطرا على العدوّ وأصبح يهابها ويعاملها بطريقة بشعة (اغتصاب، قهر، ظلم، تشريد وقتل...) فتسرد لنا الكاتبة نموذجا في حق الأمومة المغتصبة على لسان الشخصية **عباس**، وهي قصة تلك الهرّة التي كانت متواجدة معه في السجن، حيث سلب منها أبناءها ثمّ قتلت، فيقول: "استيقظ الجميع في ليلة من ليالي آذار الباردة ينتظرون ولادة القطة... الهرّة التي كانت متواجدة معه في السجن، حيث سلب منها أبناؤها بدأت مهمة الأمومة الصعبة... تلعق كل صغير لتزيل الأغشية المخاطية من على أجسادهم... تجففهم، تقطع الحبل السرّي، تأكل مشيمتها بعد الولادة وتنظف المكان وكأن شيئا لم يكن... لكن القطة شمّت رائحة الغدر والخيانة عندما قام الجنود للمرة الأخيرة بمصادرة الصغار ورميهم بعيدا.... وفي لحظة موجعة حادّة ترتطم بالأرض وهي تقطر دما برصاصة جندي سادي"[3].

---

[1] المصدر السابق، ص184.

[2] التهامي الهاني، الوطن والمرأة في شعر نزار القباني، دار صامد للنشر والتوزيع، ط2، 2004، ص75.

[3] نردين أبو نبعة، ربّ إني وضعتها أنثى، ص123-124-125.

رسمت الكاتبة صور الوطن وأهم ملامحه كما لو أنها تصف ملامح المرأة دون أن تجعلنا نشعر بمفارقة واختلاف، محاولة المزج بين الوطن والأم في صورة واحدة، إذ كلّ منهما يعتبر رمز للعطاء والنماء، رمز للحياة والأمان والاستقرار، ورمز للثورة والمقاومة، وأصبح الوطن ليس مجرّد تلك الأرض والتراب، ومكان العيش، بل أصبح الأم الحنون التي تحافظ على أبنائها وأسرتها ككل من الضياع "فالخروج من رحم الأم هو دخول لرحم الوطن، وهما الوعاء الذي تنمو فيه بذور الحياة"[1].

2- صورة الوطن الأب:

حظي الرجل كذلك بمكانة جدّ هامة في الكتابات الروائية خاصة في الأعمال النسوية، وكان معظم الكتاب والروائيون ينصرفون إلى نوع من الرجال وهو "الرجل الأب"، ذلك لشغله الدور الأساسي الذي يلعبه في الأسرة خاصة والمجتمع عامة.

وكانت معظم الروايات تجسّد صورة الأب في علاقته بأسرته في جانبين: الجانب الأول، ويصوّر فيه ذلك الحب والعطاء والعطف الذي يحمله الأب لأسرته وأبنائه، أمّا الجانب الثاني فيعكس صورة الأب الطاغية المتسلط على أسرته وفي هذه الحالة "يحفل خطاب السلطة الأبوية بالأوامر، والنواهي والشتائم، ويتوسل بالإكراه والوعيد لتطويع إرادتهم جميعا ويكون حضوره في البيت مدعاة للرهبة والخوف، بحكم ما تمثله شخصيته المتسلطة من قمع، وكبت جعلهم يرتبطون به بثنائية الحب والكراهية، ولا يقيمون دورا كاشفا عمّا ما في طوايا نفوسهم من هموم وأشواق ومطالب، ويعمدون إلى التوسّط بأمهم لتبلغه مطالبهم ورغباتهم التي يخيبها قمع السلطة الأبوية غالبا"[2]

[1] بايزيد فاطمة الزهراء، رهيوي سليم، صورة المرأة في ديوان محمد الشاعر محمد جربوعة، مذكرة نيل شهادة الماجيستير، كلية اللغة الأدبية العربية وآدابها، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2014-2015 ، ص29.

[2] محمد مسباعي، تفسير السلوك الإنساني في روايات نجيب محفوظ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2004، ص133.

وعلى هذا قد أخذ الرجل/ الأب في الكتابات الروائية صورا عديدة، فلم يصوّر في بعده الجسدي فقط بل حتى في بعده الروحي، وكان رمزا للعديد من الصور والمفاهيم، ومن بينها صورة الوطن التي حملها الرجل باعتباره ذلك الشجاع القوي والذكي، الذي كان يسيطر ويهيمن على الأسرة والمجتمع ولطالما دافع عن وطنه بكل ما يملك.

ومن بين الروائيين الذي عكسوا صورة الوطن في صورة ذلك الرجل الكاتبة الفلسطينية **سحر خليفة** التي تناولت صورة الأب بكثرة في العديد من رواياتها ومنها: "رواية الميراث"، حيث جسّدت الأب في صورتين متناقضتين: تمثلت الأولى، في صورة الأب الذي هاجر وترك أرضه ووطنه نظرًا للظروف التي كانت تحلّ به وبأرضه، لكنه كثيرا ما كان يفكر في العودة إلى وطنه ويحاول إقناع العرب المهاجرين هناك بضرورة العودة كذلك فيقول: "شو عن نستنى يا إخوان؟ ما شبعنا من أمريكا، وقرف أمريكا؟ كلنا عندنا أولاد وبنات، يعني بدكم بناتكم يطلعوا فلتنات زي بنات أمريكا؟ بدكم تحافظوا على بناتكم نضاف لطاف، وتربوهم تربية محترمة، وتجوزوهم جيزة محترمة..."[1]

كان الأب في حيرة بين أمرين من جهة يحاول أن يوفر لأبنائه حياة هادئة في مجتمع ناجحا اقتصاديا وسياسيا، ومن جهة أخرى يحاول الرجوع إلى وطنه والبقاء فيها ويحافظ على تقاليده وعاداته ويحاول تعليمها لأبنائه، والتمسك بالدين الإسلامي واللغة العربية الفصحى.

والصورة الثانية كانت لأب آخر وهو أخوه الذي كان يعمل مزارعا في أرض وطنه التي يحبها كثيرا ولا تقدّر عنده بثمن، ويرى أن من يبيع أرضه ويهجرها فهو أكبر خائن ولا يغفر له، وكان يرفض دائما لأبنائه عندما يقترحون عليه بيع هذه الأرض ويتضح ذلك في القول: "يعني معقول يا والدنا ترفض نبيع قطعة صغيرة، يعني دونمين أو ثلاثة، قال الوالد بعناد وغضب: ولا نص ولا نص دونم، ولا حبة تراب، ولا شتلة نعنع على الساقية..."[2]

[1] سحر خليفة، الميراث، دار الآداب، 1997، ط1، ص16.

[2] نفسه، ص122.

كان هذا رمزا للرجل المتعلق بوطنه الذي لا يساوم على أرضه مهما آذاه الشظف والعوز.

وكذلك رواية "ذاكرة الجسد" **لأحلام مستغانمي** التي غلب عليها الصوت الذكوري الخادم للوطن، فأخذ فيها الأب معان من الحب والتضحية والنضال معا، حيث كانت "أحلام بدورها تعاني فقدان حنان الأب، النقص الذي ظلّت تعاني منه طول حياتها، ولا تتحدث عن أمها إلا باعتبارها صورة للمرأة النمطية المحرومة..."[1]

فكان الأب بالنسبة لأحلام ذلك الوطن الذي يحتضنها ويحميها من بطش العدوّ، ويعيد لها حياتها الهادئة.

إضافة إلى العديد من الروايات التي تناولت صورة الأب وكفاحه من أجل وطنه والفداء له روحا وجسدا، من خلال دوره اتجاه أسرته ومجتمعه بصفة عامة، فكانت صورة الأب في أغلب هذه الأعمال الروائية تحلّل وفقا لمنهاج التحليل النفسي الذي وضعه فرويد، وهذا ما تؤكده **يمنى العيد** في قولها: "لئن كان بعض من الباحثين والنقاد يميل إلى قراءة صورة الأب، على تنوعها واختلافها في الرواية العربية بمنهاج التحليل النفسي الفرويدي... ففي رواية ليلى بعلبكي " أنا أحيا " الصادرة في الفترة الزمنية نفسها التي صدرت فيها رواية سهيل إدريس " الخندق الغميق "... نرى هذه الصورة نفسها للأب المتسلط، لكن مع فارق هام يعود كما يبدو لي، إلى موقع المؤلفة الأنثوي ومفهومها للتحرر الوطني:

تحيل سلطة الأب في رواية إدريس على ثقافة دينية يمثلها الشيخ ويعمل وفقها الأب وتبسط مناخها في البيت ومحيطه، في حين تحيل سلطة الأب في رواية بعلبكي على طبقة

[1] صالح مفقودة، أبحاث في الرواية العربية، منشورات مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، الجزائر، ط1، 2008، ص114-115.

برجوازية– رأسمالية، كما على أكثر من مؤسسة من مؤسسات المجتمع التي تمارس سلطتها الذكورية، وتعيق تحرر المجتمع الذي يشكل تحرر المرأة عاملا أساسيا"[1].

أمّا في الرواية المدروسة، رواية " ربّ إني وضعتها أنثى " للكاتبة **نرين أبو نبعة**، فقد غلب عليها الصوت الأنثوي أكثر من الصوت الذكوري، ولم يكن للرجل الأب حضور كبير وذلك واضح حتى من عنوان الرواية، إلا أن الكاتبة أعطت لهذا الأب بعضا من حقّه فجسدّت صورته من خلال جانبين: الأول، كان لذلك الأب الذي هجر وترك وطنه وسافر بعيدا مخلفا ورائه أسرة وأحباب، ويتضح ذلك في قول الشخصية "عباس": " أتذكرني يد طفل وليد تعاتب أصبع الأبوة الهاربة، دمع خجول يعانق الصبر ولاحق له أن يترافع عن حقه الضائع... كيف سألوّن الكلمات الباهتة التي أشعر بألوان زاهية تناسب مقام الأبوة... لم أحفظ ملامح أبي، فقد تركنا وأنا في صفي السادس، صورته في خيالي مرتعشة... لم تصلنا منه لا صورة ولا قرش واحد طوال السبعة عشر عاما التي قضاها في البرازيل..."[2]

وقال في موضع آخر: "... ولكي لا يهدر مزيدا من الوقت وليمنح نفسه شعلة لا تنطفئ طار وراء أبناء عمومتنا... مخلفا إيّانا وأمي... انسحب من حياتنا هكذا على عجل حتى دون أن نسرق منه قبلة أو نظرة حانية..."[3]

أمّا الصورة الثانية، فكانت تحمل كل مواصفات الأب الحسنة والخيّرة، كانت تصور ذلك الأب الذي يدافع عن وطنه، الأب الذي كان رجل علم وفقه ودين الذي حفظ القرآن، الذي كان من أهم رجال القرية الذين ناضلوا ضد العدوّ، يقول في هذا عباس: "لكنني مازلت أذكر أنه كان سيّد رجال القرية ومختارها... حفظ القرآن الكريم وقصص الزير سالم، كان حنونا وعلى البنات بالذات...كان أبي مناضلا شرسا ضد الإنجليز قبل أن يسلموا بلادنا إلى

[1] يمنى العيد، الرواية العربية" المتخيل وبنيته الفنية "، دار الفرابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص218.

[2] نردين أبو نبعة، ربّ إنّي وضعتها أنثى، ص23–24.

[3] نفسه، ص53.

اليهود، وعندما سجن في سجن جُنيد في نابلس ذهب ابن عمّي لزيارته وقد تعاظم لديه شعور بالفخر بعمّه المناضل لرجة أنه عاد إلى أبيه لائما:

لماذا لا تكون مناضلا كعمي مطر؟ "[1]

تستحضر الكاتبة على لسان شخصيتها **عباس** صور الأب الذي يرمز للقيم والمبادئ الأصالة والتراث، التاريخ والهوية.

كما أن الأب في الرواية يحمل رمز الثورة والفداء للوطن، فكانت صورته تشبه صورة الوطن في القوة والصرامة والشجاعة، فهو الرجل المناضل الصابر على مرارة العدو وبطشه، كأرض الوطن الصابرة التي مارس عليها العدوّ كل أشكال القمع ولا زالت تقاوم وتكافح إلى حدّ الآن، ويتجلى هذا التشبيه في الرواية في قول الكاتبة: " للسّماء لون يشبه زرقة عينيه، عينان لم يلوثهما اليتم ولا الشجن، لشعره لون ذهبي كرمال غزة، رأيته يقف على حافة جدار قديم متهالك... مليء بشعارات المقاومة... كلمات تدفع بمن يقرأها إلى سابع سماء... لكنها تسحق الاحتلال... وترعبه... خلفه صورة كبيرة لوالده الشهيد..."[2]

رسمت الكاتبة صور الأب ومواصفاته وملامحه كما لو أنها تصف وطنها بسمائه ورمله وصبره، وحاولت مزجهما في صورة واحدة، فكلاهما رمز للقوة والمقاومة والعطاء والنضال والصمود، تقول الكاتبة: " نحن يا بابا إما أن نعيش مع بعض أو نموت مع بعض، .. لا أستطيع أن أتخيل الحياة دونك... لا أتخيل أن يمر يوم ولا أراك... أريد أن أستشهد معك..."[3]

[1] المصدر السابق، ص24.

[2] نفسه، ص134.

[3] نفسه، ص 23.

" كان كالشجرة العملاقة التي تُظللهم بظلّها... يفتح نوافذهم كل صباح... ليجدوه أمامهم فيرفعون رؤوسهم به... كل شيء مع أبيهم كان له طعم مختلف... كانوا يكبرون به ومعه... عندما استشهد شعرت ولاء بالشجرة تتعرى من أوراقها ورائحتها"[1].

3- صورة الوطن البنوّة

حرصت الكاتبة على شحن الذاكرة البكر الخواء من أي صورة أو رائحة للوطن، لأجل ذلك عمدت إلى الذاكرة الشمية والذاكرة البصرية والذاكرة السمعية عند الأب لتضع حمولتها في ذاكرة البنت، التي كانت كشجرة اجتثّت من فوق الأرض مالها من قرار، لتحمل بين الضلوع وطنا تتعهده هذه الذاكرة بالرعاية لذلك كان **عباس** ليسرد لابنته **مريم** حكايات عن وطنها التي حُرمت منه حتى تقول: "سيكون لي ذكريات في وطني، مثلك بالضبط ومثل عمّي أبو رجا، سأشاركك هذه الرواية.. لن أكتفي بدور الرّاوية... عندما كنت آتي إليك أستنهض ذاكرتك على الكتابة.. أبحث في مخبئك عند أطراف الذّاكرة، أوغلُ في أحيان كثيرة وأكتفي بالوقوف عند الحدود في أحيان أخرى... أشعر بسعادة ولو للحظات، لكن في لحظات كثيرة كانت تتجمّد أصابعي لأن لك ذاكرة وامتدادًا في الوطن أمّا أنا فكأنني شجرة اجتثّت من فوق الأرض مالها من قرار... سأصبح مثل أبي لي ذاكرة.. وألبوم صور زيتوني القسمات، وخابية مملوءة بالقصص وليل يحكي قصّة الفرسان ونهار يُشيّع الشهداء.. سأسمع مواويل الفلاحين وأطرز مع الفلاحات ثوبًا فلسطيني الألوان"[2].

إنها ملامح الهوية التي تحصنها الذاكرة بتفاصيلها الدقيقة. وتسرد الكاتبة في هذا الأمر قصة الهرّة التي كانت متواجدة مع **أبو رجا** في السجن وكيف عانت أثناء ولادتها ثمّ سُلبوا منها: "استيقظ الجميع في ليلة من ليالي آذار الباردة ينتظرون ولادة القطة... ترقد أمّ العبد على إحدى جانبيها.. تمدّ رجليها إلى الأمام.. تموء وتموء مواء يقطع قلوبنا.. مرّ وقت ليس بالقصير... إلى أن خرج المولود الأول، عيون مغمّضة أغشية مخاطية تحيط به.. ولم تمرّ

[1] المصدر السابق، ص236.

[2] نفسه، ص9-10.

عشر دقائق حتى خرج المولود الثاني والثالث والرابع والخامس... بدأت مهمة الأمومة الصعبة... تلعق كل صغير لتزيل الأغشية المخاطية من على أجسادهم... تجففهم، تقطع الحبل السرّي، تأكل مشيمتها بعد الولادة وتنظف المكان وكأن شيئا لم يكن... لكن القطة شمّت رائحة الغدر والخيانة عندما قام الجنود للمرة الأخيرة بمصادرة الصغار ورميهم بعيدا.... وفي لحظة موجعة حادّة ترتطم بالأرض وهي تقطر دما برصاصة جندي سادّي "[1]

إنها المعادل الموضوعي للأم الفلسطينية التي اعتقل أبناؤها وللوطن الذي أفرغ من ساكنيه الأصليين.

وتركز الكاتبة على توصيف تأسّف **عبّاس** عن حالة ابنته **مريم** وحال أجيال المجتمع الفلسطيني الذين حُرموا من العيش في وطنهم وتغرّبوا عنه دون ذكريات تربطهم به يقول: "أشعر بتأنيب الضّمير لأنّ أطفالنا الذين ولدوا في المنفى بلا ذكريات بلا أهل أو أقارب، تحاول مريم أن تصنع ذاكرة جديدة لها ولأطفالها، تأخذ منّي ما أكتب وتعيد كتابته بقلمها الذي ينبض بحب أرض لم تطأها. أراها تتلصّص على ذاكرة عمرها ستون عامًا بأنفاسها ونبضها... أشعر بألمها وكآبتها لكنّني عندما أفتح لها بابًا من أبواب الذاكرة.. أطفئ نارًا تعبت بها.. أبلّل ذاكرتها الجافّة وأحيي عشقها الذي تخاف أن يضمر"[2].

إنها محاولة دحض مؤامرات طمس الهوية بالتجريد من الأصل والتجذّر، في الأرض والدين واللغة، لذلك كانت ذاكرة الحرف تطلب سماع رنينه في المنفى والمعتقل، والذاكرة الشمية تطالب برائحة القهوة والنعناع والبرتقال، والذاكرة اللمسية تطالب بتكور حبة الزيتون.. إنها الذاكرة التي تقاوم النسيان المقابل الغنوصي للانمحاء والاندثار.

[1] المصدر السابق، ص123-124-125.

[2] نفسه، ص80.

4- صورة الوطن الطبيعة (الزيتونة)

عادة ما تعني الطبيعة عند الرومانسيين تلك المكان الذي يستلهم منه الأديب الرومانسي أحاسيسه ومشاعره، فيتغنى بجمالها ويتخذ من مشاهدها أدوات فنية لصياغة عواطفه "وقد تعوّد الرومانتكيون على إسقاط مشاعرهم عليها وإلباسها من عواطفهم ثوبا بشريا حيّا"[1]

فكانت الطبيعة عند الرومانتيكيون تلك الصاحب والشريك الذي يشاركهم كل عواطفهم، ويعيش ويتقاسم معهم الحياة بجوانبها الإيجابية والسلبية، بفرحها وسعادتها وبأحزانها وكآباتها، لكن هذه النظرة تغيّرت مع الأدباء المعاصرين وأصبح الأديب المعاصر يعكس بفكره وموقفه واقعا أكثر عمقا وصراحة ورحابة، "فلم يعد يقتصر على الظواهر المادية في الطبيعة، بل امتدّ إلى نطاق الظواهر النفسية غير المنظورة، وهي ظواهر استأثرت باهتمام الرمزيين، باعتبارها الحقيقة التي لا حقيقة سواها والتي ترتد إليها مظاهر العالم المادّي المتغيّر "[2]

وقد اختصّ الأديب الفلسطيني بالخلود إلى عالم الطبيعة والركون في أحضانها، واستشعار حنانها وروعة جمالها، وفلسطين معروفة بطبيعتها الخلابة الرائعة المظهر، "فإن الطبيعة في الرواية الفلسطينية مكان خلاّق حسب وصف باشلار للمكان الذي يتسّم بوحدته وتفرّده، ولذلك كان الروائيون الفلسطينيون غالبا ما يعمدون إلى الاستفادة من الطاقات الجميلة التي توفرها البلاغة (التشبيه، الاستعارة، المجاز...) للتعبير عن مفردات تلك الطبيعة الآسرة "[3]

فالطبيعة تمثّل للأديب ذلك الوطن الذي ينتمي ويشتاق إليه، الوطن الذي يكنّ له كل الحب والوفاء، لأنها تمثل له: الأصالة، التاريخ، الجذر، الانتماء، العقيدة والهوية، وكل ما في هذه الطبيعة يذكّره بانوجاده وكينونته.

---

[1] محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، ط2، 1979، ص310.

[2] نفسه، ص311.

[3] نضال صالح، نشيد الزيتون (قضية الأرض في الرواية العربية الفلسطينية)، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، دط، 2004، ص160.

وتختلف عناصر الطبيعة وتتعدد بين: "الأشجار، الجبال، المياه، الرمال، التراب... الخ" ومن بين عناصر الطبيعة التي اعتمدتها الكاتبة **نردين أبو نبعة** في روايتها عنصر الشجرة، لمكانتها ومظهرها، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الشجرة في القرآن الكريم، وضرب بها مثلا بثباتها وتجذّرها يقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ سورة إبراهيم، الآية: 25-24.

لعل الشجرة تغدو مثالا للقوّة والثبات، للتحدي والشموخ، وبخاصة إذا كانت شجرة الزيتون، التي قدسها آي الذكر الحكيم في قوله تعالى:

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۚ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ سورة النور، الآية 35.

وحين أقسم بها ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ ﴾ سورة التين، الآية: 1-2-3

ولعل دلالات "الشموخ، التجذّر، والرسوخ، والمقاومة" التي تميزت بها هذه الشجيرة التي أبت إلا أن تلازم أرض فلسطين فلا تبرحها مهما قست الطبيعة ومهما جرفتها جرافات العدو وطائراته، فهي مثل زارعها ومقلمها وجاني ثمارها شمتها التحدي والتجذر والرسوخ. لذلك لا يكاد يخلو إبداع فلسطيني من الالتفات إليها، بل حملت من الرمزية ما زانها، تقول الكاتبة على لسان شخصيتها عباس: "فلشجر الزيتون في تشرين حكايا فكلّ حبّة تقع في حجر أمّي لها صوت رجوع الأحبّة إلى الدّيار، تربط أمّي أطراف ثوبها الأماميّ إلى نطاقها لتصبح

المقدمة الأماميّة لثوبها وعاء لجمع المحصول الأخضر. كلّ حبّة تغفو قليلاً في حجرها على صوت أهازيجها لتصحو بعد ذلك عندما يتم نقلها إلى أكياس الخيش.

على دلْعونا.. وعلى دلْعونا

زيْتون بْلادي أجْملْ ما يكوْنا

زيْتون بلادي واللوز الأخْضر

... كلّ العائلة تجتمع ولا تجتمع إلاّ لقطاف الزيتون، كل الناس يهبون هبة واحدة قبل بزوغ الشمس للذهاب للحصيدة... فالزيتونة تنتظر لترتمي فوق صدور العاشقين لا يبقى في القرية سوى الشيوخ والعجائز والطّلبة "[1]

" كانت أمّي وعندما تسقط منّي حبّة زيتون فلا ألقي لها بالاً تقول بصوت يشبه نواح الريح:

– انقلعت عيْنّا واحْنا بنْدور على حبّة الزيتون وبالآخرْ بْتيجي بْترميها،؟

القطاف للزيتونة كليلة العرس للعروس، يجعلها زاهية راقصة بين أصابع الفلاّح الذي يتفنن في التعامل مع الشّجرة وكيفية تسلّقها بطريقة معيّنة تمكّنه من القطف بخفة وسرعة.

لملمة حبّات الزيتون عن البساط تشبه الثرثرة بين الحبيب والحبيبة... "[2]

موسم القطاف للزيتونة بالنسبة للفلسطينيين له طعم خاص، يجتمع فيه كل أهل القرية كبيرها وصغيرها، يجلسون، يسردون الحكايا ويسترجعون الذكريات، لقد غدت مرموزا للتصدي للتجذّر في الأرض الذي يطلبه الفلسطيني ويتمناه بقوة، إنها بشرى المستقبل الأفضل الآتي، لذلك تقصد العدو المبالغة في إيذاء الفلسطيني بجرفها "فكما ترون لا شجر ولا جبل.. فالاحتلال جرف أكثر من مليون شجرة.. هذه الأشجار كانت تقوّي مناعة شعبنا

[1] نردين أبو نبعة، ربّ إنّي وضعتها أنثى، ص63-64.

[2] نفسه، ص65.

وتمثّل حاجزًا طبيعيًا أمنيًا.. أمّا الآن صرنا في مرمى قوّات العدو، والبركان يلقي علينا بحممه..."[1]

أما باقي ما تجود به الطبيعة والأرض الفلسطينية من خضروات وفواكه هو في قناعة الفلسطيني يعوّضه شيء، وكأنه بعضمن قطاف الجنة، لذلك يتضاعف شوق المغترب إلى كل هذه التفاصيل التي تزيد في الشعور بمعاناة الغربة تقول الكاتبة على لسان إحدى شخصياتها: "أحدّق في البندورة والبرتقال والفراولة، يقشعرّ بدني حين أسمع صوت الحبّ وأرى منديلا يمسح عرق ظهيرة الغربة. أحسّ بالامتلاء... بالأمس عندما دخلنا محررة حطين.. وتجولنا في البيوت البلاستيكية.. قطفنا بندورة وفليفلة وبرتقالاً وبازيلا وليموناً وخيارًا، ... أكلنا منها دون أن نغسلها... رائحتها لم أشمّ مثلها في حياتي فيها رائحة الأرض التي تنتظر أحبابها، أسمع فيها صوتًا مبحوحا أعياه النداء.. "[2]

إنها روح الأرض النابضة في ثمار جنيها تدعو إلى العودة وتلحّ على التجذّر، على الثبات وعدم النزوح والمغادرة، حوار حميم بين أم ووليدها، بين وطن وساكنه، بين أرض ومعمرها، لا يفهمه إلا من أتقن مهنة حفظ الوطن، ومن وعى مقولة أن حب الأوطان من الإيمان.

من خلال هذه الدلالات التي ترمز صورها للوطن في رواية "**ربّ إنّي وضعتها أنثى** " يأخذ الوطن صورا مختلفة، فالوطن أحيانا يكون أمّا حاضنة، يكون رحما يحمل أبناءه ويصطبر ويحافظ عليهم، وأحيانا يمثّل الأبوّة التي تُؤمّن الاستقرار والأمن النفسي، وتارة يكون ذلك الابن الذي لا بدّ أن يُرعى من طرف الأب والأمّ، وتارة أخرى يمثّل الأرض والطبيعة التي تُضفي عليه جمال مظهره.

[1] المصدر السابق، ص216.

[2] نفسه، ص246.

خاتمة

خاتمة

لما كان كل بحث يستلزم ممارسته لطقوس ختامية وجب علينا أن نشيَ بأهم الخلاصات والنتائج المتوصل إليها من خلال بحثنا، غير أننا لا نعدّها نتائج مطلقة بل هي نتائج صادرة من زاوية رؤية محددة، بعد هذه المغامرة المغرية في دراسة النصوص السردية المنفتحة، المتعلقة بثيمة الوطن في رواية "ربّ إني وضعتها أنثى" لنردين أبو نبعة، كوعي عميق للقضية الفلسيطينية، وعامل إثارة وتشويق للباحث فإن الذي يمكن استخلاصه نبلوره فيما يأتي:

1- يعد موضوع الوطن الفلسطيني من أكثر المواضيع فعالية وجذبا التي نظم فيها الأدباء والشعراء، وصوروا من خلالها الحياة التي تكشف عن الكثير من الحقائق التي يعانى منها الشعب الفلسطيني.

2- استثمرت الرواية العربية ثيمة الوطن ما أضفى عليها خصوصية نوعية، فلم يكن الوطن فيها مجرد كلمة على الشفاه، بل كان الأصل والثبات والهوية والتجذّر، وكينونة الذات.

3- حرصت الكاتبة **نردين أبو نبعة** في منجزها الروائي على دفع التّهمة التي اتُّهم بها الفلسطيني، المتعلقة بالفرار من الوطن ومنحه للعدوّ، لتؤكد أن اغتراب الفلسطيني وابتعاده عن أرضه إنّما كان إجباريًا مُحتّمًا.

4- تحمل ثيمة الوطن في الرواية أبعادًا مختلفة اتّسمت باتساعها ومرونتها، تمثلت في أبعاد سياسية، اجتماعية، نفسية ودينية..

5- أمّا عن تمثُّلات الوطن في رواية " ربّ إنّي وضعتها أنثى " فقد أخذ الوطن صور متعدّدة كالأمّ، الأب، البنوّة والطبيعة، وحاولت الأديبة تحويل الوطن من مجرّد بقعة للعيش إلى كتلة من المشاعر والأحاسيس، من مساحة جغرافية إلى مساحة روحية تسكن الذاكرة وتحتلّ نصف الخيال.

6- ألحت الرواية على مدى وعي المرأة الفلسطينية بقضيّتها ودورها في صنع الحلم الفلسطيني، كما بيّنت أن المرأة الفلسطينية في هذا العصر أصبحت أقدر على مجابهة ما يمسّ بها ويحلّ بوطنها، فالوطن هو عرضها وشرفها.

7- صدح الصوت الأنثوي وعلاَ في ثنايا الرواية حتى بدت وكأنها قضية امرأة وليست قضية وطن.

8- كانت صورة المرأة في تصوير الكاتبة للوطن أقرب للرمز من غيرها من الرموز، فكانت حاملة للتراث ومعنى الوطن ممّا ساعد الكاتبة على تعميق المعنى، كونُها تساعد على ربط جيل الحاضر بماضيه فكريا ولغويًا، وكانت الأمّ تحمل رمزًا عميقًا للوطن لما تحمله من حنان وأمان، فهي بمثابة الانتماء والهويّة.

9- الوطن يسكن الروح الإنسانية أينما حلّت، فيغدو روحًا تجوب الآفاق، ممّا جعله مطلبًا خالدًا لكل مبدع وشاعر.

11- التنويع في الأمكنة، فقد نوّعت الأديبة بين أمكنة مغلقة وأخرى مفتوحة، إذ جاء المكان المغلق ليكشف عن الحالة الشعورية التي تعيشها الشخصية داخل الأسر، أمّا المكان المفتوح فقد اتّخذت منه الكاتبة منطلقًا مكانيًا للمقاومة والنضال من أجل تغيير الأوضاع واسترجاع الوطن المضطهد، وهذا المزج المكاني خلق فضاءً رحْبًا وأوسع لتنامي حب الوطن القابع الروح قبل الجسد.

12- استدعت الروائية التاريخ كشاهد على عجز قوى الظلم على تدنيس وطن مقدس، وطن مازال لليوم يعاني ويتصدى بالحجارة تارة، وبغصن الزيتون أخرى.

13- تعاملت الروائية مع ثيمة الوطن بمنطق الكينونة/ الانتماء، حتى غدَتْ روايتها رواية الوطن/ الهوية.

قائمة المصادر والمراجع

القرءان الكريم برواية ورش

قائمة المصادر والمراجع

1- المصادر:

نردين أبو نبعة، ربّ إنّي وضعتها أنثى، ببلوتيكا الرمحي أحمد، ط5، 2013.

2- المعاجم:

1- إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، عطيّة الصوالحي، محمد خلف الله أحمد، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، 2004، ط4.

2- إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيّات، حامد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط، دار الدعوة، اسطنبول، 1989.

3- ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991.

4- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، م1، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط.

5- صبحي حمّود، المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، ط1، 2002م، مادة (و-ط-ن) .

6- علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، دط.

7- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط8، (1426هـ2005م)، باب النون، فصل الواو والنون.

8- محمد مرتضى الحسني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، طبعة الكويت، ط1، (1422هـ، 2001م)، باب النون، فصل الواو والنون.

3- المراجع العربية:

1- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب، بيروت، 1993.

2- أحمد النكلاوي، الاغتراب في المجتمع المصري المعاصر، دراسة تحليلية ميدانية لافتقاد القوة في ضوء الاتجاه الماكروبنيوي في علم الاجتماع، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1979.

3- أبو أحمد ابن عدي الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1997.

4- أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، الصحيح، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1.

5- أبو حيّان التوحيدي، الإشارات الإلهية، تحقيق عبد الرحمن بدوي، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، مصر، 1950، ط1.

6- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، دار رائد العربي، 2010، ط2، 1982.

7- التهامي الهاني، الوطن والمرأة في شعر نزار القباني، دار صامد للنشر والتوزيع، ط2، 2004.

8- سحر خليفة، الميراث، دار الآداب، 1997، ط1.

9- سعد المغربي، الإنسان وقضاياه النفسية والاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993، ط1.

10- سعيد يقطين، انفتاح النصّ الروائي "النص والسياق"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2.

11- الشريف حبيلة، الرواية والعنف " دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة "، عالم الكتب الحديث، 2010، ط1.

12- صالح زامل، تحوّل المثال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003، دط.

13- صالح مفقودة، أبحاث في الرواية العربية، منشورات مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، الجزائر، ط1، 2008.

14- طه وادي، صورة المرأة في الرواية المعاصرة، دار المعارف، 1998، ط4.

15- عادل الألوسي، الاغتراب والعبقرية، دار الفكر الغربي، القاهرة، مصر، ط1، 2003.

16- عبد الحفيظ بن جلولي، الهامش والصدى –قراءة في تجربة مفلاح الروائية–، دار المعارف، الجزائر، دط، 2008م.

17- عبد الرحيم الكردي، السرد في الرواية المعاصرة، "الرجل الذي فقد ضلّه أنموذجا"، تقديم طه وادي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2006م.

18- عبد الرزاق عيد، في سوسيولوجيا النص الروائي، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2000.

19- عبد السلام محمد الشاذلي، حول قضايا التغريب والتجريب، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، لبنان، بيروت، 1985.

20- فدوى طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة (سيرة ذاتية)، دار الشروق، رام الله، 1990.

21- فيصل عباس، اغتراب الإنسان المعاصر وشقاء الوعي، دار المنهل اللبناني، لبنان، ط1، 2008.

22- قيس هادي أحمد، الإنسان المعاصر عن هاربرت ماركيوز، المؤسسة العربية للدّراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1980.

23- محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط7، 1984.

24- محمد الهادي بوطارن، الاغتراب في الشعر العربي الرومانسي " مقارنة موضوعاتية للخطابات الشعرية لإيليا أبي ماضي وإبراهيم ناجي وأبي القاسم الشابي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، ط1، 2010.

25- محمد بن موسى بن مصطفى الدالي، الوطن والاستيطان، م1، مكتبة الرشد ناشرون، ط1، (1435هـ-2013م).

26- محمد حمود، الأدب الروسي، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2008.

27- محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1418هـ-1998م)، باب الواو.

28- محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، ط2، 1979.

29- محمد مسباعي، تفسير السلوك الإنساني في روايات نجيب محفوظ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، دط، 2004.

30- محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987.

31- مفيد محمد قميحة، الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، منشورات دار الآفاق الجديدة، دط، 1981.

32- نضال الصالح، نشيد الزيتون (قضية الأرض في الرواية العربية الفلسطينية)، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، دط، 2004.

33- نور الدين صدّوق، البداية في النص الروائي، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 1994.

34- هامل شيخ، أصوات الوطن في رواية "لخضر" للكاتبة ياسمينة صالح، أعمال المؤتمر الدولي، الرواية العربية في الألفية الثالثة ومشكل القراءة في الوطن العربي، مركز جيل البحث العلمي، الجزائر، 2016.

35- وهيب طنّوس، الوطن في الشعر العربي (من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر ميلادي)، رفع عبد الرحمن النجدي، ط1، (1975-1976م).

36- يحي الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1،(1428هـ-2008م).

37- يمنى العيد، الرواية العربية " المتخيل وبنيته الفنية "، دار الفرابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011.

4- المراجع المترجمة:

1- سيغموند فرويد، قلق في الحضارة، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1979، ط2.

2- ميشيل فوكو، المراقبة والمعاينة " ولادة سجن"، ترجمة د: علي مقلد، مراجعة وتقديم: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990.

5- المجلات والدوريات:

1- **حسين جمعة، الاغتراب في حياة المعرّي وأدبه، مجلّة جامعة دمشق، ع1+2،** 2011.

2- زكرياء إبراهيم، معنى "الاغتراب" عند الإنسان المعاصر، مجلة العربي، ع194، الكويت،1975.

3- سمية بن عمارة، منصور بن زاهي، الشعور بالاغتراب الاجتماعي لدى الشباب مستخدمي الانترنيت، دراسة نفسية تربوية، مخبر تطوير الممارسات النفسية والتربوية، ع10، 2013.

4- عدنان الظاهر، لخضر: قمة الإبهار في النص السردي عند ياسمينة صالح، مجلّة عمّان، ع173، 2010.

5- محمد الماغوط، (الوطن \ الأرض) في الأدب العربي الحديث، نون والقلم، ع14، 2016.

6- معتز قصي ياسين، الاغتراب في شعر أحمد مطر، مجلة تشرين للدّراسات والبحوث العلمية، السنة السابعة، ع،14، 2012.

6- الرسائل الجامعية:

1- أفنان القاسم، "غسان كنفاني، البنية الروائية لمسار الشعب الفلسطيني من البطل المنفي إلى البطل الثوري"، أطروحة دكتوراه، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، دط، 1978.

2- بايزيد فاطمة الزهراء، رهيوي سليم، صورة المرأة في ديوان محمد الشاعر محمد جربوعة، مذكرة نيل شهادة ماجيستير، كلية اللغة العربية وآدابها، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2014-2015.

3- حياة خلفاوي، مفهوم الحقيقة عند مارتن هيدجر "من الوجود الزائف إلى الوجود الأصلي"، مذكرة نيل شهادة الماجيستير، إشراف فريدة غيوة حيرش، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005-2006.

4- يونسي كريمة، الاغتراب النفسي وعلاقته بالتكيّف الأكاديمي لدى طلاّب الجامعة، أطروحة لنيل شهادة الماجيستر، إشراف بوكرمة فاطمة الزهراء، قسم علم النفس، العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2011-2012.

7- مواقع الانترنيت:

1- أقوال محمود درويش عن الوطن، 15 نوفمبر2015، آخر تحديث سا14.10 -https://mawdoo3.com

فهرس الموضوعات

مقدمة	أ
مدخل: في مفهوم الوطن وحضوره في الرواية العربية	
1- تعريف الوطن	6
أ- تعريف الوطن لغة:	6
ب- تعريف الوطن اصطلاحا:	9
2- حضور الوطن في الرواية العربية الحديثة	11
الفصل الأول: أبعاد صورة الوطن في رواية " ربّ إنّي وضعتها أنثى"	
ثيمة الوطن في الأدب الفلسطيني:	20
I- أبعاد صورة الوطن في الرواية:	24
1- البعد السياسي لصورة الوطن في الرواية:	24
أ- مفهوم الاغتراب لغة:	25
ب- مفهوم الاغتراب اصطلاحا:	27
جـ- مظاهر الاغتراب في الرواية:	33
جـ-1- الاغتراب خارج أرض الوطن:	33
جـ-2- الاغتراب داخل أرض الوطن:	36
2- البعد النفسي لصورة الوطن في الرواية:	41
3- البعد الاجتماعي لصورة الوطن في الرواية:	44
4- البعد الديني لصورة الوطن في الرواية:	44

الفصل الثاني: الدلالات الرمزية لصورة الوطن في رواية "ربّ إني وضعتها أنثى" لنردين أبو نبعة

1- صورة الوطن الأمّ	56
2- صورة الوطن الأب:	64
3- صورة الوطن البنوّة	69
4- صورة الوطن الطبيعة (الزيتونة)	71
خاتمة	76
قائمة المصادر والمراجع	79